
دار الثقافة
فايز فرح
Bibliotheca Alexandrina



عظماء قهروا اليأس

بقلم

فايز فــرح



طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة ـــ ص.ب ١٢٩٨ ـــ القاهرة

١٠/ ٤٩٤ ط/١ ٥ ـــ ٥/ ٩٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧٣/ ١٩٩١

طبع بمطبعة : سجل العرب

جمع في سيوبرس

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية بريشة الفنان مكرم حنين

الإهداء

إلى صديقي العزيز
المهندس الدكتور
تيدروس ميكائيل
الذي أشعر كأنه معي دائمًا في القاهرة..
مع أنه يعيش في كندا .

فايز فرح



مقدمـــة

لم أكن أخطط للكتابة مرة أخرى في موضوع « عباقرة هزموا اليأس » بعد أن انتهيت من ذلك الكتاب ، ولكن النجاح الذي حققه الكتاب ، والإقبال غير المتوقع على شرائه (حتى نفدت الطبعة الأولى في حوالي ستة أشهر) وتعليقات الكُتاب والنقاد والصحفيين ، وتشجيع القراء الأعزاء دفعني بالفعل لكتابة هذا الكتاب الذي بين يديك الآن والذي اسميته عظماء قهروا اليأس . فإنى معجب بكل إنسان يقهر اليأس ، ويحاول تحقيق المستحيل ، ومن حسن الطالع أن هناك كثيرين في جميع أنحاء العالم يحاولون ذلك ، الأمر الذي يوفر للكاتب مادة غنية وفيرة في هذا المجال . ومفهوم قهر اليأس عندي مفهوم واسع فياض ، فعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين قهر اليأس من عاهته الجسمية وهي فقدان البصر وانطلق يحقق ما لم يحققه زملاؤه المبصرون ، وقد تناولت هنا شخصية أخرى هزمت اليأس من العاهة الجسمية على الرغم من القيود التي فرضتها هذه العاهة على صاحبها ، وأقصد بذلك الأديب والفنان الراحل صبحي الجيار الذي أمضى حوالي أربعين سنة راقدًا على فراشه لا يتحرك إلا بحساب ، وفي بطء وبصعوبة ، ومع ذلك ملأ الدنيا بكتاباته ورسوماته وآرائه المفيدة وحبه للحياة ... كذلك أصيب المخترع الأمريكي توماس أديسون بالصمم ، ولم يمنعه ذلك من تقديم ما يربو على ألف اختراع للإنسان ، كان أهمها اكتشاف المصباح الكهربي . وهوميروس أبو الشعراء اليونان ، صاحب الملحمتين الرائعتين الألياذة والأوديسا كان كفيفًا ولم يمنعه هذا من أن يكون معلم اليونان الأول ، والفنان الفرنسي « أوجست رنوار » الذي عاش من أجل نشر الجمال في العالم ، أصيب بشلل في يده ولكنه لم يتخل عن فرشاته ، وظل يرسم ويبهج الحياة بكل جميل وهو يتألم ويتوجع طوال العشرين سنة الأخيرة من عمره .. والعالمة الدكتورة ماري كورى ، التي ولدت في بولندا وعاشت في فرنسا واكتشفت مادة الرداديوم Radium ، وقدمته هدية للإنسان ، توفيت

متأثرة بنفس المادة التي عاشت لتكتشفها وكانت تعرف ذلك بالطبع ولكنها كانت تحب العلم والعالم أكثر من نفسها ..

ومن منا ينكر جهد لويس بريل الذي قدم للمكفوفين في العالم طريقته المعروفة باسمه ، في الكتابة والقراءة ، لقد فقَد بصره ولكنه أعطى المكفوفين عيونًا أخرى يقرأون بها ويكتبون ..

ولست أعتبر قهر اليأس هو الانتصار على العاهة الجسمية وحسب ، وإن كان ذلك يعد بالفعل انتصارًا على اليأس ، ولكن مفهوم قهر اليأس عندي ينسحب إلى قهر العاهة الاجتماعية أيضًا ، ومن هنا تناولت في هذا الكتاب حياة المناضل الأفريقي الكبير نلسون مانديلا الذي عاش حياته يكافح ويناضل ضد العاهة الاجتماعية البغيضة التي للأسف — ما زال العالم يعاني منها على الرغم من أننا على مشارف القرن الحادي والعشرين ، وأقصد بها التفرقة العنصرية . لقد عاش مانديلا ٢٨ سنة تقريبًا في ظلام السجون من أجل قضيته العادلة ، ورفض كل إغراءات الحرية التي تتعارض مع كفاحه وقضيته ، لقد اضطرت السلطات للإفراج عنه أخيرًا لكنه ما زال يكافح هذه العاهة الذميمة ..

ألم يقهر مانديلا اليأس في موضوع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ؟ وبخروجه من السجن واستمرار نضاله وكفاحه ألم يعط الأمل للإنسانية للتخلص من التفرقة العنصرية ؟

والزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف الذي زلزل العالم بأفكاره الجديدة وشجاعته النادرة، ونادى بفلسفة البيريسترويكا وهي إعادة البناء ، وبمبدأ الجلاسنوست ومعناه المصارحة ، ألم يهزم هذا الزعيم اليأس؟ اليأس من الجمود، والتستر على الأخطاء ، وكبت الحريات والدكتاتورية ، لقد فتح الباب لجميع شعوب أوروبا الشرقية للتحرر والديمقراطية ، وبهذا هزم اليأس الذي عاشت فيه هذه الشعوب سنوات طويلة مغلوبة على أمرها لا تملك مصيرها ، وكذلك الحال بالنسبة لشعوب الإتحاد السوفيتي التي فتح لها الباب لتعبر عن رأيها وتقول

كلمتها وتصحح الأخطاء التي تراكمت على مر السنين..

وتناولت أيضًا في هذا الكتاب ألفريد نوبل ، العالِم الذي قدم للعالم اختراع الديناميت والمفرقعات ، ولما أساء الساسة استخدام اختراعه في الحرب ، أُعلن عن جائزته المعروفة في وصيته وحتى يكفر عن أخطاء غيره .

إنني أعجب بكل إنسان يقهر اليأس ، من عاهة جسمية ، أو عاهة اجتماعية.. أعجب بكل من يقتحم الصعب ويحقق المستحيل ويعارك الحياة حتى يجعلها أكثر جمالاً وسهولة ونعومة وسعادة وإشراقًا .

وتحية لكل من يقهر اليأس ويحقق الأمل ويخدم الإنسان .

فايز فرح



فهرست الكتاب

صفحة



ميخائيل جورباتشوف

نصير الحرية

(١٩٣١ —)



الحرب النووية عديمة المعنى ، إنها غير عقلانية ، فلن يكون هناك منتصرون ومنهزمون في نزاع نووي عالمي . فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها انتحار وليست حربًا بالمعنى التقليدي للكلمة .

« جورباتشوف »

ما حدث ويحدث الآن في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي أشبه بالخيال أكثر من الواقع ، فالمراقبون السياسيون وكبار الساسة والمعلقون بل والمثقفون في العالم كله ، لم يتوقعوا شيئًا مما جرى ، ومع أنه واقع إلا أن الدهشة ما زالت على الوجوه ، والانبهار هو الانفعال العادي ورد الفعل لما يحدث ، إنها مرحلة معقدة ، بل مثيرة جدًا في التاريخ كما عرضها جورباتشوف نفسه .

من كان يتوقع هذه التغييرات الجذرية في النظام الشيوعي في أوربا الشرقية ، بولندا تغير نظامها ، المجر تعترف بكراهيتها للشيوعية ، المانيا الديمقراطية تهدم السور الذي بني في ١٣ أغسطس ١٩٦١ ليفصل البلد الواحد إلى نصفين ، ونظامين مختلفين ، يثور شعب المانيا الشرقية ويحطم السور الذي يرمز إلى الاستعباد والقهر والفصل . ويتجه إلى نصفه الآخر لتوحيد ألمانيا ونشر الرخاء في ألمانيا الموحدة ، ثم القبض على الرئيس إريك هونيكر الذي ساهم في تخلف وضعف واستعباد الجزء الشرقي من المانيا . والطريف أن تتعرى الحقيقة لتثبت أن هذا القائد الشيوعي الكبير مليونير وتاجر للمخدرات . أما شعب رومانيا فقد انتفض هو الآخر ليعلن كراهيته للشيوعية التي جعلته يعيش حياته مسلوب الإرادة لا يجد ما يسد به رمقه ، لقد استرد هذا الشعب حريته ، وتم القبض على الدكتاتور شاوشيسكو وزوجته وصدر الحكم بإعدامهما ، وتسابق الجنود على تنفيذ الإعدام ، وألغى الشعب كلمة الاشتراكية من التعريف بالدولة ، وأصبح اسمها جمهورية رومانيا ، وكذلك كان الحال بالنسبة لشعب تشيكوسلوفاكيا ، فقد ألغي نفس الكلمة ، وثار على الحزب الشيوعي الحاكم ، وأتى برئيس جديد ثوري هو الكاتب المسرحي فاتسلاف هافيل .

ويمتد شعور الكراهية إلى شعب بلغاريا ــ التي كانت بمثابة مزرعة موسكو ــ فيثور هو الآخر على الحكم الفردي وسيطرة الحزب الشيوعي الواحد ، وتقوم الأقلية المسلمة لتعلن حقها في إطلاق الأسماء الإسلامية على أفرادها وأبنائها ، ويوافق أخيرًا البرلمان البلغاري على هذا الحق ، وهو أبسط الحقوق الإنسانية ، كما يوافق على حقهم في ممارسة شعائر دينهم بحرية كاملة .. وتمتد الثورة والانتفاضة أو الزلزال كما يسميه البعض إلى منغوليا في آسيا وإلى شعوب

أخرى في العالم الثالث ، ثورة من أجل حرية الإنسان ، وتحطيم كل العقبات التي تعوق نموه ورخاءه وسعادته .

حقًا إن ما يحدث الآن أشبه بالخيال ، لأن المحاولات الأولى في سبيل الحرية والتي جرت منذ عشرات السنوات قوبلت بالإعدام ، كما كان الجيش السوفيتي يسارع إلى قمع الدول التي تدفعها شجاعتها على الاعتراض على النظام ، فحركة ربيع ١٩٦٨ في براغ ، قوبلت بقسوة الجيش الروسى ودخوله تشيكوسلوفاكيا ، بقوة قوامها ٧٣ ألف جندي وضابط روسى ، وقد حدث نفس الشيء مع المجر عندما حاولت الفكاك من قبضة الاتحاد السوفيتي .

نرى الآن صورة مناقضة لتلك الأوضاع تمامًا ، فعندما ثار شعب رومانيا على النظام الفاسد والدكتاتورية ، بعث جورباتشوف زعيم الاتحاد السوفيتي يهنيء الشعب على التخلص من حكومته الفاسدة وعرض عليه المساعدة في ثورته ، كذلك بدأ الجيش السوفيتي الموجود في تشيكوسلوفاكيا (٧٣ ألف) العودة إلى قواعده في الاتحاد السوفيتي . وعندما حطم شعب ألمانيا الديمقراطية سور برلين ، لم يجد إلا المساعدة والتأييد من موسكو . وهكذا أصبحت موسكو تساعد الشعوب على التحرر من قبضة النظام الفردي المستبد ، واختيار النظام الذي يتفق وطبيعتها ، حتى لو رفضت الاشتراكية والشيوعية . وهذا هو التطور الجديد الذي أدهش الجميع وأبهرهم وشد إعجابهم .

وأعتقد أن وراء كل هذا رجل واحد متفتح ، قائد نادر الوجود عرف معنى الحرية والديمقراطية والرسالة الإنسانية ، زعيم من طراز جديد واقعي له شخصيته المستقلة ومواقفه الذاتية التي تتسم بالصدق مع نفسه ومع الآخرين . إنه ميخائيل جورباتشوف الذي يستحق كتابًا منفردًا عنه ، ولكن ماذا يمنع أن نتناوله مع مجموعة من العباقرة الذين هزموا اليأس ؟ ، وهو الزعيم الذي أتاح الحرية لكثير من الشعوب المستعبدة وخلصها من اليأس الذي ملأ حياتها وأظلم نفوسها ومستقبلها .

ولد ميخائيل جورباتشوف MIKHAIL GORBACHEV في اليوم الثاني من

شهر مارس ١٩٣١ في قرية بريفولني بإقليم ستافروبول Stavropol جنوب روسيا ، والذي يبعد عن العاصمة موسكو بحوالي ألف كيلومتر ويطل على البحر الأسود . ولد جورباتشوف من أسرة ريفية متوسطة الحال ، فجده كان أحد المؤسسين لشركات الأراضي ، ثم لجمعات المزارع ، ثم رئيسًا لمجلس إدارة أحد مجمعات المزارع ، ووالده سيرجي اندريفتش Sergei Andreyevich كان فلاحًا يعمل بزراعة الأرض ، بدأ أولاً بزراعة قطعة أرض خاصة به ، ثم في إحدى شركات الأراضي ، ثم في مزرعة جماعية ، ثم في إدارة محطة للجرارات والآلات لمدة أربعين سنة ، كذلك اشترك في الحرب الوطنية الكبرى في سلاح المهندسين ومعركة كيرسك وتحرير خاداكوف وكييف ، وفاز بميدالية الشجاعة نهر الدنيبر Dnieper ، وفي نهاية الحرب أصيب بجرح في المعركة التي دارت بالقرب من كوسيتشي بتشيكوسلوفاكيا وتم علاجه في كاراكاو ، وكان قد التحق بالحزب أثناء الحرب وفاز بعدة نياشين ، فقد كان محبوبًا من زملائه لتمتعه بالصبر والتواضع ، واستجابته الدائمة للجهاد . من هنا يذكر جورباتشوف دائمًا إعجابه بوالده وأنه فخور بتاريخه وشخصيته .

أما والدة جورباتشوف السيدة ماريا بانتليفنا Mariya Panteleyevna فكانت فلاحة هي الأخرى تعمل بزراعة الأرض ، استطاعت أن تربي ابنها على الصفات الحميدة وطلب المساعدة من الله وقت الأزمات ، وكانت تقرأ معه الكتاب المقدس وتشرح له ضرورة الإيمان بالله خالق الكون . من الطبيعي أن ينشأ جورباتشوف على الإيمان بالله وحب الوطن والدفاع عنه كما عشق البطولة أيضًا .

عمل جورباتشوف بالزراعة منذ نعومة أظفاره ، وكان يساعد والده في الحقل ، ويقود الجرار الزراعي ، واكتسب أخلاقيات ومثاليات الريف ، فكان يستيقظ مبكرًا في الصباح ، ويتناول الأطعمة الريفية البسيطة كالجبن واللبن والزبادي ، ويشرب الشاي الثقيل . التحق جورباتشوف بأقرب مدرسة لبيته ، إلا أنه كان عليه أن يمشي أميالاً ليصل إليها . فاستأجر حجرة صغيرة يعيش فيها طوال أيام الدراسة بجانب المدرسة ، أما في عطلة نهاية الأسبوع فكان يعود

إلى بيته المتواضع المكون من حجرتين .

لم يكن متفرغًا للدراسة وحسب ، بل كان يعمل ويدرس في نفس الوقت ، ففي سن الثالثة عشر يبدأ العمل في مزرعة جماعية ، وفي الخامسة عشر عمل مساعدًا لعامل آلات في محطة آلات وجرارات لمدة خمس سنوات ، وكانت دراسته متصلة بعمله أيضًا وفي نفس المجال .. وفي سنة ١٩٥٠ تخرج من المدرسة بنجاح ، وقيد اسمه في قسم القانون في جامعة موسكو ، وكانت حياته في الجامعة شعلة من النشاط والعمل ، فقد التحق سنة ١٩٥٢ بالحزب الشيوعي السوفيتي ، وشارك منظمات الشبيبة في كل أنشطتها ، وجمعت الصداقة بينه وبين زملائه وأساتذته ، وفي هذا يقول زملاء جورباتشوف :

كان دائمًا طموحًا واثقًا من نفسه ، ولم يكن متفوقًا تفوقًا خاصًا أثناء الدراسة ، ولكنه كان مرموقًا دائمًا ، يتزعم الاجتماعات ، ويرأس الشبيبة الشيوعية ، ويحب ارتقاء خشبة المسرح ، ويرأس الفريق الرياضي . كما كان شابًا معتدلاً ، لا يدخن ولا يشرب بكثرة ، ولا يفرط في الطعام .

تعرف جورباتشوف على زميلة له في الجامعة تدعى رايسة وأعجب بها ، وبادلته الإعجاب ، ثم تحول الإعجاب إلى حب فزواج . وأثناء دراسته الجامعية كان يعيش مع عشرة من زملائه في حجرة واحدة بالمدينة الجامعية ، لا يمتلك إلا معطفًا واحدًا وحلة واحدة ، وقليلاً جدًا من الروبيات في جيبه ، ويأكل الكرنب المسلوق ــ الطعام الشعبي في الاتحاد السوفيتي ــ صباحًا ومساء ، ولما عرف زملاؤه برغبته في الزواج من زميلته ، باركوا قصة الحب وتركوا له الحجرة التي كانوا يشاركونه فيها وذهبوا يقيمون مؤقتًا في حجرات أخرى ، وقضى العروسان بعد ذلك عدة أشهر متفلصين إلى أن وجدا شقة صغيرة على تلال لينين ، وتعالوا نسمع حكاية حب جورباتشوف كما رواها بنفسه لمندوب وكالة تاس في ١٨ مايو سنة ١٩٨٩ :

« .. قابلت رايسة ماكسيموفنا RAISA MAXIMOVNA سنة ١٩٥١ ، أثناء دراستي بالجامعة ، وهي من مواليد سيبريا ، وكان والداها يعملان في النقل

بالسكك الحديدية ، وبعد تخرجها في المدرسة وحصولها على الميدالية الذهبية ، التحقت بقسم الفلسفة بجامعة موسكو ، وبعد تعارفنا بسنتين ، أي عام ١٩٥٣ تزوجنا ومنذ ذلك الحين ونحن سويًا . عملنا بعد التخرج في الجامعة بمنطقة ستافروبول حيث مسقط رأسي ، وتركت رايسة موسكو العاصمة بما فيها من مسرح وسينما وصالونات فكرية لكي تعيش معي ، لكنني لم أعمل في تخصصي لمدة طويلة ، فسرعان ما رشحت للعمل في عصبة الشبيبة الشيوعية ، ومنذ ذلك الحين وأنا عضو عامل في منظمة الكوموسول والحزب ، وقضيت سنوات طويلة في العمل مع لجان الحزب في مختلف المناطق ، منها تسع سنوات تقريبًا سكرتيرًا أول للجنة الإقليمية للحزب الشيوعي السوفيتي ، ولما كان على أن أتعامل في الشئون الزراعية ، درست منهجًا بالمراسلة مع قسم الاقتصاد في معهد زراعي ، وكان إضافة جديدة لتدريباتي المختلفة .. وقامت رايسة ماكسيموفنا بالتدريس في مؤسسات التعليم العالي ، وكتبت رسالة الدكتوراه للدفاع عن حياة الفلاحين في المزارع الجماعية ، وحصلت على درجة أستاذ مساعد وقامت بتدريس الفلسفة لأكثر من عشرين سنة .. وفي ستافروبول وُلدت ابنتنا إيرينا Irina حيث تلقت دراستها وتزوجت هناك ، وحصلت على درجة الدكتوراه في العلوم وهي تعمل مع زوجها في مهنة الطب ، أما زوجها أناتولي Anatoly فقد عمل لمدة تسع سنوات في مستشفى المدينة بموسكو ، وحصل على درجة الدكتوراه في جراحة العضلات ، وهو الآن أستاذ مساعد بالجامعة وجراح أيضًا ، وقد رزقت ابنتنا إيرينا بطفلتين هما كسينيا Kseniya وأناستاسيا Anastasiya وقد ولدتا في موسكو ... ».

خلال حكم خروشوف تعرف جورباتشوف ـــ وكان يعمل رئيسًا للحزب في ستافروبول ـــ بيوري أندروبوف رئيس المخابرات السوفيتية وقتذاك ، وتكونت صداقة حميمة بينهما ، وفي لقاء آخر ، تم في سنة ١٩٧٨ وجمع بريجنيف وشيرنينكو وأندروبوف وجورباتشوف ، استحوذ الأخير بالأكثر على اعجاب أندروبوف بثقافته الواسعة في النواحي القانونية والأيديولوجية ، وطرق إقناعه التي لا تقاوم ، ومقدرته الكبيرة على العمل ، وذاكرته القوية التي تختزن

كل شيء عرفته ، حتى أنه يتذكر القصائد الشعرية التي تعلمها في المدرسة . كان أندروبوف ينتقد دائمًا امبراطورية بريجينيف ، ويعلم جيدًا أنها ستنهار ، ووجد في جورباتشوف نموذج الشاب الذي يمكن أن ينقذ الشيوعية من هذا الانهيار المحتم ، وفي نفس السنة (١٩٧٨) ، تحدى جورباتشوف لأول مرة اليد الطولى للمخابرات السوفيتية ، وكتب مذكرة من أجل إصلاح النظام الزراعي في الاتحاد السوفيتي ، وبعث بها إلى اللجنة المركزية متضمنة انتقادات حادة للإسراف وسوء التوظيف واستغلال النفوذ ، ومن الطبيعي ألا تلقى هذه المذكرة الجريئة الشديدة اللهجة إعجاب القادة في موسكو ، بل كان يمكن لهذه المذكرة في ذاك الوقت أن تذهب بصاحبها إلى ما وراء الشمس ، أو على الأقل تبعده عن المناصب القيادية ، وكان أندروبوف وراء منع أية محاولة لإسكات هذه الانتقادات من جانب البيروقراطيين في موسكو ، وفي نفس السنة أيضًا عُين جورباتشوف سكرتيرًا في اللجنة المركزية للحزب ، ودخل المكتب السياسي للحزب بفضل ضغوط أندروبوف ، وذلك بدلاً من كولاكوف الذي مات في ظروف غامضة . اكتشف جورباتشوف أن روسيا في ظل حكم بريجينيف ، ما هي إلا امبراطورية الفساد بالفعل ، ومنذ ذلك الوقت انشغل بالأحوال المتردية التي وصلت إليها الزراعة في الاتحاد السوفييتي ، ثم تعمق فيما بعد ــ بناء على نصائح أندروبوف ــ في كل الأمور المتعلقة بالسياسة الخارجية وخاصة العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية . واستطاع أن يدرس بعناية كل الملفات والمذكرات التي بحوزة جهاز المخابرات السوفيتية ، وأن يقيم علاقات طيبة مع الأجهزة العسكرية ، وأن يلم بكل الأمور المتعلقة بالمسائل العسكرية .

رحل بريجينيف في شهر نوفمبر ١٩٨٢ وبدأ الجميع ينظرون إلى جورباتشوف على أنه عضو هام لا يمكن أن يستغني عنه المكتب السياسي للحزب الشيوعي الذي يضم تسعين عضوًا ، وفي عام ١٩٨٣ قام برحلة إلى كندا استغرقت عشرة أيام رأى فيها ديمقراطية الغرب ، والحرية التي يتمتع بها الفرد والحكومة ، وحرية التعبير في وسائل الاعلام ، وانبهر بهذا العالم الجديد . انتخب جورباتشوف عام ١٩٨٥ سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعي السوفيتي ،

وكان هو الشاب الذي تطلع إليه الجميع لإنقاذ الاتحاد السوفيتي من مشاكله الداخلية والخارجية . كان الاقتصاد السوفيتي في الحضيض ، والفساد منتشرًا في كل مكان ، والانتاج منخفضًا لأدنى حد ، والجنود السوفييت يتساقطون كما يتساقط الذباب في أفغانستان ، ووصلت علاقات السوفييت مع الصين إلى أسوأ حالتها ، كذلك كان الغليان يهدد بولندا والمجر ، والخطر يحدق ببراغ وبرلين الشرقية ، الصعوبات كانت كثيرة ، وفي كل اتجاه ، وكان على هذا الشاب جورباتشوف السكرتير العام الجديد للحزب أن يواجه هذه المشاكل ، ويحلها بقدر الإمكان ، حتى يحافظ على سمعة الاتحاد السوفيتي وبقائه كإحدى القوتين العظميين . ولم ييأس الرجل ، وإنما بدأ يشجع حرية الرأي وزيادة الإنتاج ، والقضاء على البيروقراطية ، وتخفيض النفقات العسكرية ، ونتيجة لحرية الرأي ظهرت السلبيات الكثيرة التي يعاني منها الناس . ووضحت الصورة بكل ألوانها الزاهية والباهتة والسوداء واشترك الجميع ، كل الشعب السوفيتي ، بقيادة جورباتشوف في عمل الرتوش للصورة حتى تصبح زاهية براقة .

قام جورباتشوف أيضا خلال عام ١٩٨٥ بزيارة إلى بريطانيا ، شد فيها انتباه كل الانجليز ، وتعرف على التجربة الإنجليزية في الحكم ، وتوقع له المسئولون هناك كل النجاح ، ولكنهم أبدوا بعض التخوف على شخصية هذا الرجل الذي وصل إلى الحكم في دولة تقليدية متزمتة ، وهو المتفتح الاجتماعي المرن ، فلم يكن جورباتشوف من الشيوعيين الجامدين ، فهو يرتدي ملابسه من لندن ، ويقتني ساعة من الذهب ، ويفضل الكولونيا الألماني ، ويرتدى الجوارب الإيطالي ، ويعجبه رباط العنق المصنوع في أمريكا ، وهو اجتماعي لطيف المعشر ، لا يلاقي صعوبة في الاختلاط بأي شخص تقريبًا ، وتتسم شخصيته برغبة عميقة في المعرفة ، وتكشف أسئلته عن اهتمام حقيقي وليس عن مجرد شعوره بأن من واجبه أن يوجه سؤالاً ما بين الحين والآخر أثناء الزيارات الرسمية .

وأطلق جورباتشوف كلمتين كانتا أساس التحول الجديد في الحكم ، بل أساس الثورة الجديدة ، والتي نقلت العالم إلى مرحلة جديدة أكثر حبًا واحترامًا

للإنسان ، وأملاً في غد جديد مشرق في الوفاق الدولي . وأضيفت الكلمات إلى القاموس العالمي وهما روسيتان في الأصل ..

الأولى هي البيريسترويكا Perestroika
الثانية هي الجلاسنوست Glasnost .

الكلمة الأولى بمعناها « إعادة البناء » ، أما الثانية فمعناها المصارحة . البيريسترويكا ليست مجرد كلمة ، بل هي فلسفة أو قل مدينة فاضلة جديدة كالتي كتبها أفلاطون ، ولكنها أكثر واقعية ، إذ تهتم بدراسة الأوضاع المختلفة ، والمشاكل المتباينة في الداخل والخارج ، وقد تحولت الكلمة إلى كتاب كتبه جورباتشوف وتولى نشره عالميًا أحد الناشرين الأمريكيين ، وتم تداوله في حوالي مائة دولة ، وقد بلغ ما طبع منه أكثر من مليوني نسخة . نشرت صحف العالم ملخصًا أو بعض فقرات منه ، وفي مصر تم ترجمة الكتاب إلى اللغة العربيّة بمعرفة « حمدي عبد الجواد » المترجم . وقد خصص جورباتشوف عائد بيع هذا الكتاب لميزانية الحزب الشيوعي وأغراض اجتماعية أخرى ، كما خصص جزءًا للتخفيف عن ضحايا زلزال أرمينيا وتاجيكستان ، ولمؤسسة الثقافة السوفيتية ولإقامة حديقة جديدة للأطفال في موسكو .

البيريسترويكا والتفكير الجديد هي دعوة إلى التغيير الشامل في السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والحياة الثقافية والاجتماعية . وبمعنى آخر هي دعوة لإعادة البناء من جديد وعلى أسس تتفق مع الأحداث العالمية ومشاكل الإنسان في هذا الزمان ذلك استعدادًا لدخول القرن الحادي والعشرين.. ويتحدث جورباتشوف في كتابه عن ثلاثة عناصر تعبر عن جوهر البيريسترويكا هي :

(١) التعاون الدولي .
(٢) الكفاءة الاقتصادية .
(٣) الديمقراطية السياسية .

أولا : التعاون الدولي :

يرى جورباتشوف أننا نعيش في عالم متنوع ، متباين ، ودينامي متحرك ومشرب باتجاهات متعارضة وتناقضات حادة ، إنه عالم تحولات اجتماعية جوهرية ، وثورة علمية وتكنولوجية شاملة ، ومشاكل تتعلق بالبيئة وبالموارد الطبيعية ، وتغيرات جذرية في تكنولوجيا المعلومات . إنه عالم توجد فيه إمكانات للتطور والتقدم لم نسمع عنها من قبل ، جنبًا إلى جنب مع الفقر المدقع ، والتخلف ، وما إلى ذلك من معالم العصور الوسطى ، كما أنه عالم حافل أيضًا بمجالات توتر ضخمة ، ولم تعد الحرب النووية وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسية أو اقتصادية أو أيديولوجية ، أو أية أهداف أخرى ، بل أصبحت عديمة المعنى ، وغير عقلانية ، فلن يكون هناك منتصرون ومنهزمون في نزاع نووى عالمي . فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها انتحار وليست حربًا بالمعنى التقليدي للكلمة ، كذلك لم يعد الأمر قاصرًا على الاعتراف باستحالة الحرب ، بل أصبح المطلوب هو التعاون بين مختلف الدول نظرًا لظهور العديد من المشاكل المتباينة التقليدية وغيرها ، مثل مشاكل المحافظة على البيئة والطبيعة وحوض البحر والمحيطات ، وموارد كوكبنا التقليدية التي اتضح أنها ليست بلا حدود .

يخلص جورباتشوف إلى أنه يمكن حل كل شيء إذا أعاد كل منا التفكير في دوره الحقيقي في هذا العالم ، وتصرف على نحو يتسم بالمسئولية .

وهكذا يتضح من استحالة الحرب ، وكثرة المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية ضرورة التعاون الدولى وهو العنصر الأول الذي تظهره البيريسترويكا في إعادة البناء .

ثانيا : الكفاءة الاقتصادية :

لما كانت الحرب في هذا الزمان مستحيلة ، وكان على العالم الاهتمام بالتعاون المثمر ، والاتجاه إلى السلام ، فإن استعادة الكفاءة الاقتصادية أصبح أمرًا مفروضًا ، وأصبح الإصلاح الاقتصادي هو العنصر الثاني المهم في

البيريسترويكا .

شهد الاقتصاد السوفيتي خلال النصف الثاني من السبعينات إخفاقًا هائلاً ، وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور ، والمشاكل لا تجد حلا فتتضاعف ، وواجه جورباتشوف هذه المشكلة منذ البداية ، وكتب التقارير التي تفضح هذا الضعف والكساد الاقتصادي ، وعندما آلت السلطة إليه فجر المشكلة ، وأعلن عن سوء الإدارة الاقتصادية في الاتحاد السوفيتي ، بحثًا عن حل لها ، والغريب أن نفس المشكلة تعرضت لها وعانت منها كل الدول الاشتراكية الأخرى وبخاصة الماركسية ، وربما كان السبب أن هذه النظم تستند إلى نوع من التفسير الاقتصادي للتاريخ ، وبالتالي تعطى الاقتصاد أهمية بالغة من الناحية النظرية ، ولكنها عند التطبيق تواجه مشاكل غير قليلة نتيجة لسوء وضعف الإدارة الاقتصادية ، ولعل السبب يرجع ــ كما يقول الدكتور حازم الببلاوي في كتابه الصغير تقديم البيريسترويكا ــ إلى أن دراسات ماركس وأنجلز تعلقت في الواقع بالمجتمعات الرأسمالية والتنبؤ باتجاه هذه المجتمعات نحو الاشتراكية ، ولم تتضمن هذه الدراسات أي تحليل لما يمكن أن يكون عليه الوضع بعد تحقيق الثورة الاشتراكية وزوال الرأسمالية . وقد ظلت علاقة النظام الاشتراكي بالنظرية الاقتصادية محل مناقشة بين الاقتصاديين من مختلف النزعات ، وثار في وقت من الأوقات جدل في الأوساط الغربية حول مدى إمكان تحقيق الكفاءة الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي ، وبعد إلغاء الملكية الخاصة واستبعاد دور السوق ، اختلف رأي الاقتصاديين حول ذلك من مؤيد ومعارض ، ولكن الاقتصادي البولندي « أوسكار لانجه » أوضح أن النظام الاشتراكي ، شأنه شأن النظام الرأسمالي ، يمكن أن يحقق الكفاءة الاقتصادية نظريًا وعمليًا بالالتجاء إلى استخدام نظام الأسعار ، وجاء جورباتشوف مطالبًا باستخدام المؤشرات الاقتصادية بدلاً من الأهداف الكمية ، والاعتراف بأهمية السوق وعناصر التكلفة في اتخاذ القرارات الاقتصادية . إن الجدل الذي يدور حول المركزية أو اللامركزية في الإدارة الإقتصادية ، وحول التخطيط الكمي أو استخدام مؤشرات السوق والأرباح ، كل هذا يدور في الواقع حول الرغبة في تحجيم

الدور الذي تقوم به الأجهزة السياسية والبيروقراطية في الإدارة الاقتصادية .

وللخروج من الضائقة الاقتصادية والأزمة التي تفرض نفسها بدأ النظام السوفيتي الاهتمام بالقطاع الخاص والملكية الفردية ، وبدأت شركات الاستثمار الأجنبي تعمل هناك ، وطبيعي أن تكون البداية متواضعة لأن تغيير نظام استمر سبعين سنة ليس بالعمل السهل ، ولكنه بداية لإيجاد حلول للمشكلة الاقتصادية . على أننا يجب أن نذكر هنا أن جورباتشوف يتمسك بالنظام الاشتراكي ، ويعتبر التغييرات أو التعديلات التي يشهدها الاقتصاد السوفيتي مجرد تطور للنظام حتى يستمر وينتعش ، وليس خروجًا عن النظام أو النظرية .

ثالثا : الديمقراطية السياسية

الحديث عن الإصلاح الاقتصادي أو تحقيق الكفاءة الاقتصادية هو في الواقع دعوة للحد من تدخل العناصر البيروقراطية وأجهزة الحزب في توجيه موارد الاقتصاد بطريقة عشوائية جاهلة مما ينتج عنه زيادة المشكلة الاقتصادية وتفاقمها ، ومن هنا فإن قضية الإصلاح الاقتصادي ترتبط بقضية الديمقراطية وضرورة تعدد الآراء ، وعلى الرغم من أن المطالبة بالديمقراطية السياسية قضية مطلوبة لذاتها ، إلا أنها وثيقة الصلة بأسلوب الإدارة الاقتصادية . وهكذا يظهر العنصر الثالث والمهم (من عناصر البيريسترويكا أو إعادة البناء) ، وهو المطالبة بمزيد من الإجراءات الديمقراطية في مختلف نواحي الحياة في الاتحاد السوفيتي .

• استطاع البيروقراطيون (في ظل نظام الحزب الواحد المسيطر على مقدرات الأمور كلها) ، السيطرة على كل شيء ، ودس أنوفهم في كل أجهزة الدولة ، وتحول هؤلاء البيروقراطيون من خدمة المجتمع إلى مراكز قوى ، فأصبحوا سادة يتمتعون بالعديد من المزايا ، وبدخل غير عادي ، وسلطات كبيرة تعوق نمو المجتمع بدلاً من أن تدفعه إلى الأمام وتحل مشاكله . ومن الطبيعي ألا يجد رجل الشارع مكانًا له في مجتمع البيروقراطيين ، فقد حدث انفصال بين القول والعمل ، وجرى تشجيع المديح والكذب وكتابة التقارير البعيدة عن الواقع والحقيقة ، مما دفع الناس إلى السلبية وعدم تصديق الشعارات

والكتب والصحف ، وكل ما يقال على لسان المسئولين ، ونتيجة ذلك اهتزت القيم الأخلاقية العامة ، واهتزت نظرة الناس إلى القادة والقيادة ، وحل العبث السياسي والتوزيع الواسع النطاق للجوائز والألقاب والمكافآت محل اهتمام السلطة بالشعب وحل مشاكله ومعرفة مطالبه ، ومن هنا يطالب جورباتشوف بمزيد من الديمقراطية ، فهي توأم الاشتراكية ، والاشتراكية دون ديمقراطية حقة ليست بالاشتراكية السليمة ، فالديمقراطية تساعد القطاع العريض من الشعب على أن يعبر عن مشاكله وآلامه وآماله وطموحه وبالتالي تحاول الاشتراكية تحقيق ذلك .

أما الكلمة الثانية التي استطاع جورباتشوف أن يدخلها في قاموس الحياة السياسية في العالم فهي الكلمة الروسية جلاسنوست Glasnost ومعناها المصارحة أو المكاشفة ، فقد رأى الرجل أن أهم خطوة لتحقيق البيريسترويكا (إعادة البناء) هي المصارحة والصدق ، حتى يمكن التعرف على الداء واختيار الدواء المناسب له . ومن يدرس حياة جورباتشوف منذ طفولته ، يعرف أن هذه أخلاقيات الرجل الذي شب عليها ، ورضعها من والدته وهو ما زال طفلاً صغيرًا . فقد كانت تقرأ معه كلمات الكتاب المقدس وتشرح له القيم الأخلاقية التي يدعو إليها حتى آمن بالله وأصبح صادقًا مع نفسه ومع الآخرين ، ومن الطريف أن المسئولين في الاتحاد السوفييتي أرادوا أن يغيروا في صور جورباتشوف ، ويمسحوا « الوحمة » ذات اللون البرقوقي المطلة من فوق جبهته ، واستطاعوا أن ينفذوا هذه التعليمات سنة كاملة ، ولكنه اعترض على ذلك حتى يراه الناس في صورته الحقيقية وقال إنه لا يحب الكذب والخداع أو التسويف ، وإنه يؤمن بالحقيقة لأنها الثورة الفعلية ، وبدأ المجتمع السوفييتي يبحث عن الحقيقة ويزيل الغشاوة من على عينيه ، فكشف عن الفساد والبيروقراطية والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، وكانت هذه هي البداية لعصر جديد ، ولإعادة البناء ، ليس فى الاتحاد السوفييتي وحسب ، وإنما في كل أوروبا الشرقية والدول التي تعتنق نفس الأيديولوجية الاشتراكية في العالم . وكانت الجلاسنوست أو المصارحة قوية لدرجة أنها جعلت شعوب

أوروبا الشرقية تعبر عن استيائها من النظام ومن الأيديولوجية الاشتراكية نفسها ، بل وتمحو كلمة اشتراكية من اسمها الرسمي . وبعد أن كان الاتحاد السوفيتي يسارع بجيوشه من أجل القضاء على الثورة دفاعًا عن الأيديولوجية الاشتراكية أصبح يساعد هذه الشعوب في تحقيق إرادتها وحريتها حتى لو كانت ضد الاشتراكية ، إنه دور جديد للاتحاد السوفيتي يقوم به بفضل فلسفة جورباتشوف في إعادة البناء والمصارحة ، ولولا هذا الرجل الشجاع ما حدثت كل هذه الثورات .

اتجه جورباتشوف بعد ذلك إلى العالم بفلسفته الجديدة ، وكان عليه أن يثبت حسن نيته ، فقد شبع العالم من وعود الاتحاد السوفيتي القديمة في ظل النظام الجامد القائم على التقارير الوهمية ، وكانت البداية الوفاق مع أمريكا ، قابل الرئيس ريجان في جنيف سنة ١٩٨٥ وعرض عليه فكرة التعادل الاستراتيجي ، وفي المقابلة الثانية سنة ١٩٨٦ في قمة ريكيافيك قدم اقتراحه الواقعي الشهير بتخفيض ترسانات الأسلحة النووية ، وأخيرًا في واشنطن تحقق الحلم عام ١٩٨٩ . وتم التوقيع على معاهدة إزالة الصواريخ الاستراتيجية من أوروبا ، وكان جورباتشوف قد ألقى خطابًا تاريخيًا في الأمم المتحدة في ٧ ديسمبر ١٩٨٨ أوضح فيه فلسفته الجديدة في ضرورة الوفاق العالمي والتعاون الدولي . وطالب بحق الشعوب في تقرير مصيرها واختيار النظرية السياسية الأيديولوجية التي تناسبها وتحقق طموحها . كما وعد بخفض القوات السوفيتية في أوروبا ، والابتعاد عن مسارح الأحداث في أمريكا اللاتينية وأفريقيا . وفي عام ١٩٨٩ بدأ في تنفيذ وعوده فعلاً ، فخفض من قواته في أوروبا ، ووضع لها زمنًا محددًا بعد ذلك للانسحاب الكامل . وسحب قواته من على حدود الصين وأفغانستان . وحدثت الانتخابات الحرة في بولندا ، وأنشىء برلمان في الاتحاد السوفيتي ، وانهزم الحزب الشيوعي المجري في الانتخابات ، وحُطم سور برلين ، وتغيرت الحكومة العتيدة في تشيكوسلوفاكيا ، وقامت الثورة في رومانيا وغيرت نظام الحكم تمامًا ، وأثبت جورباتشوف للعالم أنه صادق في فلسفته ، وأنها فلسفة عملية وليست مجرد آراء للاستهلاك الوقتي .

تدعمت الحرية في الاتحاد السوفيتي ، واتجه النظام إلى التعددية الحزبية ، وفقد الحزب الشيوعي السوفيتي دلاله كحزب حاكم متفرد له السلطة العليا ، وبدأ الشعب السوفيتي يستنشق هواء الحرية ، ويشارك في الانتخابات ليقول كلمته ، ويفرض إرادته التي سلبت منه في عصر الجمود والتقارير الوهمية ، وانتخب الشعب جورباتشوف رئيسًا للجمهورية . فقد وجد فيه المخلص والمنقذ ، حقيقة أنه توجد مشاكل كثيرة وبخاصة في مجال التموين والسلع ، ولكن الحرية قبل الخبز ، فهي التي ستأتي بالخبز والخير الكثير بعد ذلك ، فالإنسان الحر هو أثمن شيء في الوجود ، ووصل التعبير الحر لحركة الجماهير في الاتحاد السوفيتي إلى المناداة بنهاية لينين ، بعد أن كانوا يطوفون حول ضريحه في قلب الميدان الأحمر في موسكو العاصمة في طوابير طويلة لعدة ساعات ، لمجرد إلقاء نظرة والتبرك منه .

حطم جورباتشوف الأصنام الحقيقية ، وأعاد الإيمان بالله إلى الاتحاد السوفيتي وكل أوروبا الشرقية ، وهو لا يترك مناسبة إلا ويعبر عن إيمانه العميق بالله ، ففي عام ١٩٨٥ قال لمندوب مجلة « تايم » : « إن الله في علاه ، منحنا الحكمة لنتعرف على طرق تحسين علاقاتنا مع بعضنا البعض ». وقام بزيارة الفاتيكان واستصدر إعلانًا رسميًا لمجلس السوفيت الأعلى يقول :

« من حق كل مواطن سوفيتي أن يكون متدينًا ... »

كذلك احتفل الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٨ بالعيد الألفي لدخول المسيحية روسيا ، واشتركت كنائس العالم المختلفة في هذا الاحتفال ، ولم يعد الدين أفيون الشعوب كما قال ماركس . ولقد أثبتت الأيام صدق وعود جورباتشوف ، وها هو الاتحاد السوفيتي يفتح أبواب الكنائس والمساجد للمؤمنين ليمارسوا شعائرهم بكل حرية ، ويعترف بحقهم في هذا .

وكاتب هذه السطور يؤمن بالدور الكبير الذي لعبه ، وما زال يلعبه جورباتشوف ، في سبيل عالم يرفرف عليه السلام ، ويتمتع بأغلى ما يملكه الإنسان وهو الحرية . أما الرخاء والسلع التموينية وغيرها فستأتي وتتوفر لا محالة

مع العمل والإنتاج . وقد هزم جورباتشوف اليأس الذي ذب في نفوس شعوب الاتحاد السوفيتي وشعوب أوروبا الشرقية ، وكل الشعوب التي كانت تسير في فلك الأيديولوجية الاشتراكية ، هزم اليأس وأعاد إلى هذه الشعوب الأمل في غدٍ مشرق حر مليء بالخير والسلام والإيمان والرحمة ، بعد أن كانت تعيش في وهم حقيقي ، وحرية مزيفة وإلحاد يحطم أرواحها .

وعلى الرغم من أن التجربة ما زالت قائمة ، إلا أن بداياتها وما وصلت إليه حتى الآن تشجع على ضرورة استمرارها ونجاحها بإذن الله ، وكما قال جورباتشوف نفسه في كتابة البريسترويكا (إعادة البناء) .. إن التغيير قد بدأ ولا يمكن للمجتمع الآن أن يتراجع إلى الخلف .

وإزاء هذا الاصرار الرائع والعزيمة التي لا تلين ، وتقديرًا من العالم كله لجهود هذا الزعيم الإنسان في تدعيم أواصر السلام والاخاء بين الشعوب من مختلف الاتجاهات .

فقد قامت الأكاديمية السويدية بمنحه (جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٩٠) متوجة بذلك جهوده ومؤيدة سياسته ومدعمة لكفاحه ضد قوى الرجعية والتخلف داخل بلاده وخارجها .

نلسون مانديلا

يهزم التعصب

(١٩١٨ —)



لقد كرست حياتي من أجل نضال شعب جنوب أفريقيا للوصول للحرية ، وناضلت ضد سيطرة البيض . وحاربت أيضًا سيطرة السود ، من أجل تحقيق مجتمع ديمقراطي حر يتمتع أفراده بالمساواة وبفرص متكافئة . وإني على استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل ذلك .

« مانديلا »

أخيرًا ترك نلسون مانديلا ظلام السجن ، وخرج إلى نور الحرية التي عاش يحلم بها ، ويعمل من أجلها ، خرج مرفوع الرأس ، يملك حريته ، كله عزم وتصميم على الكفاح من أجل المساواة بين البيض والسود ، حاولوا منذ سنوات مساومته والإفراج عنه بشرط أن ينصرف عن قضيته ، ويترك بلده ليعيش في المنفى لكنه رفض الحرية المشروطة وقال :

لست مستعدًا لأن أبيع أو أساوم على حق شعب جنوب أفريقيا في أن يعيش حرًا .

يعد مانديلا أشهر سجين في القرن العشرين ، والبطل الذي أحبه شعبه واعتبره قديسًا ، والتف حوله . فقد أجبر الأعداء قبل الأصدقاء على احترامه كنموذج فريد للوطنية والحب والتضحية . أصبح نلسون مانديلا حديث العالم مع بداية عام ١٩٩٠ ، وجه له الرئيس الأمريكي بوش الدعوة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأعلن في مؤتمر صحفي أن إجراءات المقاطعة التي فرضتها الإدارة الأمريكية على جنوب أفريقيا ستستمر إلى أن تتخذ حكومة بريتوريا خطوات أخرى لإزالة سياسة الفصل العنصري .. الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف يرسل له تهنئة يقول فيها : إن الإفراج عنه يعتبر دليلاً قويًا على انتصار العدالة والتضامن . أما في لندن فقد أصبح الحديث الأول عن مانديلا لدرجة أن السيدة مارجريت ثاتشر رئيسة مجلس الوزراء قالت في إحدى جلسات البرلمان إن إنجلترا قد اهتمت بمانديلا بما فيه الكفاية وما فوق الكفاية .. وقبل أن تستطرد في الحديث وتقول ما تريد هاج البرلمان وماج ، وقوطعت رئيسة الوزراء ووقف أعضاء البرلمان يقولون لها :

اسحبي هذه العبارة .. اسحبي هذه العبارة على الفور ..

وسحبت مسز ثاتشر عباراتها أمام طوفان الرفض الجماعي الهادر ، وكان تعليق المذيع — إذ كانت الجلسة مذاعة على الهواء — إن هذه هي المرة الأولى في تاريخ رئيسة الوزراء السياسي التي تسحب فيها عبارة من عباراتها وتتراجع عنها ، وبعد أن هدأت الضجة وقفت عضوة بالبرلمان الإنجليزي وقالت للسيدة

ثاتشر : لو كنت أنت التي أمضيت في السجن ٢٨ عامًا في سبيل مبادئك ووطنك لعرفت أهمية الرجل . وهكذا اهتم العالم كله بمانديلا البطل الأسطوري رمز الكفاح والنضال من أجل الحرية والمساواة . فما هي قصة مانديلا وحكاية جنوب أفريقيا ؟

ولد نلسون مانديلا NELSON MANDELA في ١٨ يوليو سنة ١٩١٨ في « أومتاتا » التي أصبحت فيما بعد عاصمة معزل السود ترانسكي ، وهو ابن أحد زعماء قبيلة الهوكسا وهي أكبر قبائل جنوب أفريقيا ، إذ يبلغ عدد أفرادها أكثر من ستة ملايين نسمة . مات والده وهو ما زال صبيًا في الثانية عشر من عمره ، وأبدى منذ طفولته رغبة في الدراسة وكان على قدر كبير من الذكاء والثقة بالنفس وحب الناس . التحق وهو في العشرين من عمره بالجامعة الخاصة بالسود في إقليم الكاب (فورت هارت) حيث درس القانون ، وفي الجامعة ظهرت إرهاصاته الأولى كثائر إذ دعا زملاءه إلى الإضراب ومقاطعة الدراسة بعد تقليص سلطات اتحاد الطلبة الذي كان عضوًا فيه . وكان رد الفعل أن أوقفته الجامعة عن الدراسة مدة معينة ، وفي الجامعة أيضًا تعرف على صديق كفاحه أوليفر تامبو ، وأصبح الرجلان بعد ذلك أول محامين من الأكثرية السوداء في جنوب أفريقيا . ويبدو أن مانديلا الثائر كان ثائرًا في كل شيء حتى على العادات والتقاليد ، فعندما عرف أن والدته تريد أن تزوجه زواجًا تقليديًا هرب مع ابن عمه إلى مدينة جوهانسبرج العاصمة ، وهناك وقعت المفاجأة ــ فقد شعر مانديلا بقسوة التفرقة العنصرية واكتشف اتساع الهوة بين الحياة في المدن البيضاء ومقاطعات السود . انتقل بعد ذلك إلى الكسندرا وهي من ضواحي جوهانسبرج ، حيث تعرف على وولتر سيسولو ابن الفلاح الذي يكبره بست سنوات ، وهو اللقاء الذي لعب دورًا هامًا في حياة مانديلا ، فقد ألحقه سيسولو بوظيفة في وكالة للعقارات يمتلكها ، وساعده في دفع مصاريف دراسة الحقوق بالمراسلة ، والأهم من ذلك أنه وجهه في كفاحه السياسي ، وعرفه بممرضة كانت هي زوجته الأولى إيفلين ، وأنجب منها ثلاثة أبناء ، مات أحدهم في حادث طريق . انضم مانديلا عام ١٩٤٤ إلى منظمة

المؤتمر الوطني الأفريقي التي تأسست سنة ١٩١٢ ، ومنذ ذلك الوقت ارتبطت حياته بتاريخ هذه المنظمة ، بل واشترك في بناء هيكلها وفلسفتها ، كما ارتبطت حياته بقضايا شعبه ، وأصبح رمزًا للكفاح ضد التفرقة العنصرية ، وأنشأ مع رفقائه رابطة الشباب التي أصبح سكرتيرًا عامًا لها سنة ١٩٤٨ .

يؤمن نلسون مانديلا بالكفاح السلمي وضرورة المفاوضات والتفاهم ، ولذلك قاد سنة ١٩٥٢ حملة التحدي السلمية التي اشترك فيها ٨٥٠٠ مواطن متعددو الجنسيات وكانت ضد القوانين والتشريعات غير العادلة ، التي تفرق بين البيض والسود . ألقت السلطات القبض عليه ، وحكمت عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ ، ووضعته تحت المراقبة وحظرت نشاطه . وفي نفس العام أنشأ مانديلا وصديقه تامبو مكتبًا للمحاماة ، وهو أول مكتب خاص بالسود الذين حولتهم القوانين العنصرية من أبرياء إلى مجرمين . في ٢٦ يونيو ١٩٥٥ تبنت منظمة المؤتمر الوطني الأفريقي ميثاق الحرية ، وطالبت بالمساواة مع البيض في كافة الحقوق السياسية . وفي الخامس من شهر ديسمبر ١٩٥٦ ألقي القبض على مانديلا في مدينة سويتو مع ١٥٠ آخرين بتهمة الخيانة العظمى . واستمرت المحاكمة خمس سنوات تعرف مانديلا خلالها على رفيقة كفاحه الباحثة الاجتماعية « ويني » ووجد فيها المرأة التي تستطيع الوقوف بجانبه وتشد من أزره في مشوار كفاحه لتحقيق هدفه في القضاء على التفرقة العنصرية ، وطلق زوجته الأولى ليرتبط بويني ، وتزوجها فعلاً مع أنها تصغره بستة عشر عامًا . أنجب منها طفلتين ، وفي شهر مارس ١٩٦١ حكمت المحكمة ببراءته من تهمة الخيانة العظمى .

شهدت جنوب أفريقيا عام ١٩٦٠ مذبحة بين البيض والسود عرفت بمذبحة « شارب فيل » وراح ضحيتها ٦٩ مواطنًا من السود المسالمين علاوة على مئات من الجرحى . ولم يجد مانديلا بدًا من أن يتجه إلى العمل السرى ، حيث اختبأ عن أنظار السلطة العنصرية ، وأخذ يصدر البيانات والنداءات اليومية من مخبئه إلى جميع المواطنين السود بأن ينظموا المظاهرات والإضرابات عن العمل . وكان لهذه النداءات وقع السحر ، مما جعل الشرطة العنصرية تطارده في كل مكان ،

بينما كان هو يغير مكان مبيته كل ليلة ، كان موجودًا في كل مكان ، في القرى والمدن والنجوع حيث يجد في كل منها بيتًا من بيوت أصدقائه الذين يثق بهم ، وطبيعي ألا يستقر مع أسرته ، عندما سألته ابنته لماذا اخترت هذا الطريق ..؟ أجابها بأن هذا الطريق هو الذي اختاره . وبعد معركة أو مذبحة شارب فيل ، التي أفصح فيها البيض عن وجههم القبيح ، أعلنت الحكومة العنصرية الأحكام العرفية . وحظرت نشاط المنظمات السياسية ، وفي سنة ١٩٦١ تم إعلان جنوب أفريقيا جمهورية للبيض .. وحاول مانديلا الحوار سلميًا مع النظام العنصري دون جدوى ، فبدأ حملة العصيان المدني ودعا جميع المواطنين السود إلى وقف أي تعاون مع الحكومة العنصرية وقال : « نريد أن نجعل مهمة هذه الحكومة مستحيلة ، فهي تحرمنا من حقوقنا السياسية وفي نفس الوقت تجبي منا الضرائب ، لن ندفع لهم قرشًا واحدًا ، إلا بعد أن نتساوى معهم في حق الانتخاب وحق الترشيح للبرلمان .. »

أدرك مانديلا بعد ذلك أن شعبه لن ينتصر في معركة التحرير بالمقاومة السلبية وحدها وإنما يتحتم عليه أن يصبح معدًا للكفاح المسلح أيضًا ، وخلع ملابسه المدنية وارتدى البدلة العسكرية وفي سنة ١٩٦١ أنشأ الجناح العسكري لمنظمة المؤتمر الوطني الأفريقي « رمح الأمة » وفي ذلك قال :

« كنت أفضل أن أكافح من أجل الأهداف القومية بالأسلوب المتحضر ، إلا أن حكومة الأقلية البيضاء لجأت إلى العنف فقتلت المئات بالأسلحة التي لا يملك الأفارقة منها إلا أقل القليل ، فعلى هذه الحكومة التي تدعي أنها من المتحضرين أن تكف عن استعمال السلاح أولاً .. » .

استطاع مانديلا في يناير ١٩٦٢ أن يعبر الحدود « بوتسوانا » ومنها إلى أديس أبابا عاصمة أثيوبيا ، حيث شارك في مؤتمر حركة تحرير شرق ووسط أفريقيا ، وبعد المؤتمر سافر إلى دار السلام ، ثم إلى لاجوس فالقاهرة ودول شمال وغرب أفريقيا . أما في لندن فقد التقى بزعماء حزب العمال البريطاني ، واستطاع في رحلته الطويلة هذه أن يكسب الرأى العام العالمي إلى جانبه ،

في قضيته العادلة من أجل المساواة بين البيض والسود في جنوب أفريقيا .

بعد عودته رحبت به الصحف وأطلقت عليه لقب الزنبقة السوداء ، لكن الشرطة العنصرية لم تتركه لحاله وإنما نشطت وزادت من حملاتها للقبض عليه . توجه مانديلا إلى إحدى ضواحي مدينة جوهانسبرج ، حيث أعد له أنصاره مخبأ بعيدًا عن أنظار السلطة العنصرية . لكنه بعد أيام آثر الانتقال إلى مدينة دوربان ، حيث تنكر في هيئة سائق . وفي يوم الأحد ٥ أغسطس ١٩٦٢ لحقت بسيارته إحدى دوريات الشرطة بعد أن قطع ساعة ونصف الساعة في الطريق إلى خارج دوربان ، وسرعان ما أحدقت به الدورية من كل جانب ، وقبضت عليه وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات ، سنتين بتهمة الإثارة ، وثلاث سنوات بتهمة مغادرة البلاد دون جواز سفر . ومنذ اليوم الأول للقبض عليه خرج ملايين الوطنيين السود في مظاهرات شعبية ، ومؤتمرات عامة في كل مكان ، للمطالبة بالإفراج عنه . كان رد الحكومة العنصرية أن أصدرت أمرًا بحظر جميع الاجتماعات والتجمعات .. وفي الجلسة الأولى لمحاكمة نلسون مانديلا دوت القاعة بالتصفيق عند دخوله إليها ، وكان يرتدي فراء فهد وظل متمسكًا بهذا اللباس حتى انتهاء المحاكمة ، أما التهم الموجهة إليه فكانت طبع وتوزيع منشورات تدعو العمال للإضراب مما ترتب عليه إضراب عشرات الآلاف عن العمل خلال صيف ١٩٦١ ، ومغادرة البلاد ودخولها دون استخراج وثائق سفر . أثناء تنفيذه عقوبة الحبس خمس سنوات ألقى البوليس القبض على مجموعة من زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي وعثروا معهم على وثائق بخط مانديلا تدينه بالتحريض على الثورة واستخدام السلاح . فأعيدت محاكمته مرة ثانية ، وحكم عليه في ١٣ يونيو ١٩٦٤ بالسجن مدى الحياة هو ورفاقه في المؤتمر .

ظل نلسون مانديلا في ظلام السجون من ٥ أغسطس ١٩٦٢ إلى أن أفرج عنه أخيرًا في ١١ فبراير ١٩٩٠ بعد ٢٨ سنة من الظلام والظلم والقيد ، قضى عشرين سنة منها مسجونًا في إحدى جزر الشيطان في المحيط ، في قلعة قديمة رهيبة في جزيرة روبين منفى المجرمين ، ولقى هناك أشد ألوان الاضطهاد

والتعذيب ، ولكنه لم يتزحزح خطوة عن مبادئه ومطالبه ، وقبل الإفراج عنه بسنوات قليلة رأت الحكومة العنصرية ، وتحت ضغط الرأي العام العالمى ، أن تنقله إلى سجن عصري في إحدى ضواحي « كيب تاون » . أصبح مانديلا وهو في سجنه رمزًا للكفاح والبطولة والتضحية ، ومن هنا كانت الجماهير تزور بيته حيث تقيم فيه رفيقة كفاحه السيدة ويني مانديلا ، كما كانت المظاهرات تطوف حول سجنه تستمد منه الروح الوطنية الخالصة ، وتشد من أزره وصلابته ، وقد اشترك في إحدى هذه المظاهرات ما يربو على عشرين ألف مواطن ، مات منهم ثلاثون شخصًا بعد أن تكاتف الجيش والبوليس في صدها .

* يجدر بنا ونحن نتحدث عن نلسون مانديلا الزعيم الوطني الأفريقي الذي قاوم التعصب وتعذب كثيرًا من أجل إيمانه بقضيته ، أن نشرح القضية التي عاش ويعيش من أجلها ، وهي قضية جنوب أفريقيا ، قضية الحرية والمساواة بين الجميع .

* يعود تاريخ التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا إلى القرن السابع عشر عندما بدأ الأوربيون يتوافدون على منطقة رأس الرجاء الصالح ، وكانت الخطوة الأولى في فرض سيادة وتسلط الأوربيين ــ الأقلية البيضاء ــ على الغالبية السوداء . وتقوم سياسة التفرقة العنصرية التي رفضها مانديلا ورفاقه في حركات التحرر الوطني على نفس الأسس التي قامت عليها النازية في ألمانيا . وهي أن الأجناس غير متساوية ، وبعضها أسمى من غيره ، وبالتالي ، فإن الأجناس الأقل سموًا ما هي إلا خادمة للجنس الأرقى ، لذا فإنه منذ تسلط البيض على زمام الأمور في جنوب أفريقيا تم فصل المجاميع السكانية كعملية أولى ، وفي الوقت نفسه تم إصدار مجموعة كبيرة من التشريعات لتأمين هيمنة العنصر الأبيض والتمييز في المعاملة والحقوق والحريات .

وتقوم دولة جنوب أفريقيا داخل الحدود الحالية منذ سنة ١٩١٠ وهي كيان بريطاني قام بعد حرب البوير ويتكون من :

٢١ مليونًا من الأفريقيين السود .
٥ ملايين من البيض .
٣ ملايين من الملونين وهم خليط من البيض والآسيويين .
مليون من الهنود .
١٢٠ ألف يهودي ، وهي جالية قوية وثرية في نفس الوقت .

* يحتكر البيض السلطة والثروة ويعتمدون في ذلك على جيش قوامه حوالي ٨٥ ألفًا ، وقوة من الشرطة تبلغ ٥٠ ألفًا ، وهم مسلحون تسليحًا كاملاً . ويتكون برلمان جنوب أفريقيا من مجلسين ، مجلس الجمعية الذي يتألف من ١٧٠ عضوًا ، ومجلس الشيوخ الذي يضم ٥٤ عضوًا . وإنطلاقًا من سياسة التفرقة العنصرية التي تتبعها الحكومة فقد استبعد في هذين المجلسين أي نوع من أنواع التمثيل بالنسبة للوطنيين السود أو الملونين ، وقصرت عضويته على البيض فقط . وعلى الرغم من التغييرات التي يشهدها مجتمع جنوب أفريقيا إلا أن هناك تمسكًا بالتقاليد والعادات العنصرية القديمة التي جعلت ٢٦ مليونًا من السود يعيشون في مساحة لا تزيد على ١٣ ٪ من الأراضي تحكمهم أقلية بيضاء لا يزيد تعدادها على خمسة ملايين نسمة تحتل ٨٧٪ من أراضي البلاد . ومن الطبيعي أن يصل دخل المواطن الأسود إلى أدنى حد في حين يصل دخل المواطن الأبيض إلى أضعاف أضعافه ، وتدل الإحصاءات أن دخل الفرد الأبيض يبلغ ٨٢٦٠ دولارًا في السنة تقريبًا ، مقابل ١٨٠٠ دولار للمواطن الأسود . وفي مجال التعليم ترفض الحكومة إلغاء الفصل العنصري فيما يتعلق بالمدارس الحكومية ، وقد أدى ذلك إلى ازدحام المدارس المخصصة بالطلبة السود ، بينما اضطرت الحكومة في بعض المناطق إلى إغلاق ١٩٦ مدرسة مخصصة للبيض لقلة عددهم ، وكانت النتيجة ارتفاع نسبة الرسوب بين الطلبة السود فوصلت إلى ٦٠٪ بينما لا تتجاوز هذه النسبة عند البيض ٥٪ وحسب . وتتجلى السياسة العنصرية بوضوح في موضوع الإسكان ، فمشاكل الإسكان التي يتعرض لها السود كثيرة وبعيدة تمامًا عن الإنسانية ، ففي الأحياء التي يسمح فيها للسود بالإقامة تتآمر السلطات ضدهم مع الملاك البيض لتطردهم منها ، بالإضافة إلى

الشعور العدائي الذي يكنه البيض المقيمون في الأحياء الخاصة بالسود مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى اندلاع المواجهة الدامية التي وصل عدد ضحاياها خلال السنوات الثلاث الماضية إلى نحو ثلاثة آلاف قتيل .

ونتيجة هذه التفرقة العنصرية البغيضة ثار الشاب منديلا والتف حوله رفاقه والشعب كله ، مطالبين بأبسط حقوقهم الإنسانية والمساواة في بلادهم بين الجميع . وعندما بدأ حياته العملية محاميًا ، يدافع عن السود ، لكن الحكومة العنصرية أمرته بأن ينقل مكتبه من مدينة جوهانسبرج إلى واحدة من المدن المخصصة لسكنى السود ، وهكذا بدأ كفاحه وكرس حياته من أجل وطنه وشعبه حاولت الحكومة ، أمام ضغط الرأي العام العالمي المؤيد لمانديلا ، أن تساومه على الخروج من السجن والإفراج عنه بشرط ألا يعود للكفاح ويفك التزامه بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وجناحه العسكري « رمح الوطن » ولكنه رفض ذلك تمامًا ، وبعث برسالة من داخل السجن إلى شعبه يعلن رفضه لشروط الحكومة ويستحث العزم على مواصلة الجهاد . ولم تستطع رفيقة نضاله زوجته ويني مانديلا أن تلقى هذا البيان لظروف الأمن ، فأنابت ابنتها « زنجي » في إلقائه .. وفي مدينة سويتو ، وقفت الابنة في احتفال تكريم الأسقف الزنجي ديزموند توتو بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للسلام وهو رفيق مانديلا في الكفاح — وأعلنت الفتاة بصوتها الرقيق أن والدها لن يخرج من السجن إلا إذا تعهدت الحكومة العنصرية بعدم استعمال العنف مع عائلته ، وأباحت نشاط الحزب الوطني الأفريقي المحظور ، وتخلت عن سياسة الآبارتيد Apartheid أي سياسة التفريق العنصري ، واستمرت « زنجي مانديلا » الفتاة الصغيرة ، التي تركها أبوها وذهب إلى السجن وعمرها يوم واحد ، في القاء رسالة والدها وسط حماس وحب وتصفيق الجميع .

وفي نفس هذا العام ١٩٨٥ ، استطاع أحد رجال القانون الأمريكيين ، والذي كان يشارك في قضية ووترجيت ، أن يحصل على أول حديث لنلسن مانديلا زعيم الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا . وتلقفت وكالات الأنباء العالمية والإذاعات والصحف هذا الحديث ونشرته كاملاً .. فهو أول حديث يدلي

به مانديلا من داخل السجن ، ولم يجريه معه صحفي أو إعلامي ، بل رجل قانون معروف .

يصف صموئيل واش رجل القانون الأمريكي اللحظات الأولى للقائه بمانديلا في السجن فيقول :

كان طويلاً نحيفًا وسيمًا ذا كبرياء ، وبدا متدفقًا بالصحة والحيوية ، وأصغر بكثير من سنه الذي يبلغ ٦٦ سنة ــ (كان ذلك عام ١٩٨٥) وجدته يرتدي قميصًا أنيقًا من الكاكي ، وبنطلونًا عاديًا ، ورحب بالجميع بود وثقة ، كما لو لم نكن في السجن ، وجلسنا للحديث الذي استمر ساعتين ونصفًا ، وأستطيع أن أؤكد أنني لم أشعر لحظة واحدة خلالها أنني في حضرة أحد قادة حرب العصابات أو أمام زعيم ثورى مهيج ، ولكن إزاء رئيس دولة يتمتع بكل الهيبة والثقة ..

وأهم ما دار في الحوار هو التعريف بوجهة نظر مانديلا حول حل مشكلة جنوب أفريقيا وقد لخصها في النقاط التالية :

إن لنا مطلبًا واحدًا أساسيًا وهو المساواة السياسية .

ولدينا برنامج واضح محدد لا تنازل عنه يتضمن ثلاثة مطالب لا رجوع عنها ولا مساومة عليها :

أولاً : وحدة جنوب أفريقيا كاملة ، ورفض تام للأوطان المصطنعة للأفريقيين .

ثانياً : تمثيل كامل في البرلمان المركزى وليست عضوية محدودة في مجالس عنصرية خاصة بالسود والملونين .

ثالثًا : مساواة تامة في الحقوق الدستورية وحق التصويت لكل مواطن أيا كان لونه .

وقبل أن تتحقق هذه المطالب لن يكون هناك سلام أو استقرار .

* وأوضح صموئيل واش لمانديلا مخاوف البيض إذا استطاع السود أن يحصلوا

على كل حقوقهم فيظلموهم أو يطردوهم من البلاد ، وكانت إجابة مانديلا :

سيدي ، إن قضية البيض هي إحدى المشاكل الرئيسية التي شغلت حزبنا طويلاً ، والتي عكفنا على دراستها بكل جوانبها وعلى طرح الحلول الصحيحة والمناسبة لها . وفيما يتعلق بنا فإننا نؤمن بصدق أن البيض في جنوب أفريقيا يختلفون عن البيض في أي بلد أفريقي آخر ، ونحن نؤكد في كل قرارات حزبنا أنهم ينتمون إلى هنا ، وأن هذا وطنهم ، وأننا نريدهم فيه ، ولكن على أن يعيشوا معنا وأن تتقاسم السلطة على قدم المساواة . واستطرد مانديلا :

إننا ندرك تمام الإدراك أن هذه المشكلة تتطلب كل الحكمة والاتزان ، ونحن نعرف عن يقين أن تصفية النظام العنصري لن تتم بين يوم وليلة ، وأن إقامة المجتمع الجديد المترابط المتكامل المتعدد الأجناس ، لن تتم على الفور ، ونحن مثلاً لا نطالب بتوحيد مدينة جوهانسبرج وضم أحيائها البيضاء الراقية إلى ضواحيها النائية السوداء الغارقة في الفقر والبؤس ، ولن نضم الاثنين معًا على الفور وبلا ضوابط ، وإذا أصبح في مقدورنا ، وبعد مائة عام من التفرقة والبغضاء والكراهية أن نحث السود أو ندفعهم إلى الزحف على المدن واحتلال قصورها ، فنحن أول من يريد أن تظل جوهانسبرج على المستوى العالمي من الجمال والرخاء الذي تنعم به .. بل وسوف تبقى الأحياء البيضاء على حالها ، حتى يمكن توفير فرص العمل وفرص السكن ، وبذلك يمكن أن ينتقل السود لسكناها كمواطنين محتفظين بكرامتهم .

* وسأل صموئيل واش مانديلا عن سبب إتجاهه إلى العنف وتكوين الجناح العسكري للحزب الوطني الأفريقي « رمح الأمة ». أليس من الأفضل اتخاذ الطرق السلمية ؟

* أؤكد لك أنه لا أحد أكثر مني ترحيبًا بأن يتم التغيير في جنوب أفريقيا سلميًا ، ونحن ندرك عن يقين إننا إذا ما لجأنا إلى العنف فإن تضحياتنا وخسائرنا سوف تكون جسيمة ، ولكن الأمر لا يعتمد علينا فقط ، وإنما هو في يد القادة والحكام البيض . ويتوقف على ما إذا كانوا حقًا صادقين وحسني

النية إزاء مطالبنا .. وإذا ما استجابوا لها فلن تكون هناك من حاجة إلى العنف . ولكن إذا ما ركبوا رؤوسهم ، وأصروا على مواقفهم المعروفة ، وهي رفض الاعتراف بنا ، والاجتماع معنا ، واستبعاد التفاوض حول القضية الجوهرية وهي المساواة السياسية .. فماذا يبقى لنا ؟ إذا أصر هؤلاء السادة على أن لا أمل لنا ، وأن لا مستقبل أو مصير إلا أن نظل أرقاء ، فهل يكون لدينا بديل آخر سوى العنف ؟ .. وربما يصبح الثمن فادحًا ، ولكني أؤكد لك أننا نحن الذين سوف ننتصر في النهاية ، بالثبات ومرور الوقت ، وبمساعدة إخواننا على الحدود ، وأصدقائنا في العالم ، وبالنضال الصلب الذي عُرف به حزبنا سوف تجعل الحياة مستحيلة بالنسبة لهم .

وقد عبرت إجابات مانديلا في هذا الحوار عن شخصيته المتألقة ، كزعيم سياسي ، يتمتع بكل عناصر الزعامة الناجحة ، وبرؤيته السياسية وموضوعيته وتفتح أفقه لحل المشكلة ، فهو لا يريد أن يطرد البيض بل أن يعيش معهم في سلام دائم ، وهو يعرف أن حل القضية لا يمكن أن يتم في يوم وليلة ، ولكنه سيتم في يوم ما ، والمهم أن تبدأ الخطوة الأولى .

وإذا كان العالم كله يتحدث اليوم عن الزعيم الأفريقي نلسون مانديلا فإنه يجب التنويه بدور مصر في التعريف بمشكلة جنوب أفريقيا وضرورة الإفراج عن مانديلا ، ليس في السنوات الأخيرة فقط والتي سبقت إطلاق سراحه ، والتي رأس فيها الرئيس حسني مبارك منظمة الوحدة الأفريقية ، بل منذ السنوات الأولى لاعتقاله في الستينات ، فقد شنت مصر حملة في الأمم المتحدة عام ١٩٦٤ للمطالبة بطرد حكومة جنوب أفريقيا منها ، ومن عضوية وكالاتها المتخصصة ، وفي قاعة قصر الأمم في جنيف صدق مؤتمر المنظمة على طرد حكومة جنوب أفريقيا بسبب انتهاكها لحقوق الإنسان كما وردت في إعلان فيلادلفيا عام ١٩٤٨ ، وانتهاجها لسياسة التفرقة العنصرية ضد الشعب الأسود واعتقالها لقائد المؤتمر الوطني الأفريقي الزعيم والمحامي نلسون مانديلا .

ولم يعزل السجن مانديلا عن شعبه أو ينسيه قضيته ، بل أدار من داخله

مفاوضات الحوار الذي دار من أجل التوصل إلى جنوب أفريقيا جديدة تتسع للبيض والسود والملونين ، كما أهدته عدة جامعات أوربية إجازة الدكتوراه الفخرية لنضاله ضد التفرقة العنصرية .

ولا شك أن الإفراج عن الزعيم الأفريقي نلسون مانديلا في ١١ فبراير ١٩٩٠ هو بداية لعهد جديد ، وهو اعتراف بحقوق السود في العيش في سلام مع البيض ، ويبدو أن مجتمع جنوب أفريقيا تأكد من أن المواجهة الدامية المستمرة بين البيض والسود ، لا يمكن أن تظل دون حل جذري ، فالسود يدركون أن النضال المسلح لن يؤدي إلى نتيجة وأن قلب نظام الحكم العنصري في بريتوريا لا يكون عن طريق القوة . أما الأقلية البيضاء فقد بدأت تستشعر جسامة الأعباء الملقاة على عاتقها من أجل حماية النظام القائم ، وقد أعلن أحد الساسة البيض في جنوب أفريقيا .. أننا قد بدأنا ندرك شيئاً فشيئاً عدم إمكان تحقيق الاستقرار للبلاد طالما أن الأغلبية السوداء بها تحس بأنها طبقة مستعبدة . والمناخ السياسي العالمي مع بداية التسعينات ، وانتفاضة أوربا الشرقية نحو الحرية ، والبيريسترويكا في الاتحاد السوفيتي ، واالتوصل لحل لمشكلة ناميبيا ، كل هذه الأمور تدفع المعلقين السياسيين ، ورجال السياسة للأمل في حل مشكلة جنوب أفريقيا ..

وبعد الإفراج عن رمز الكفاح والنضال البطل نلسون مانديلا لا يبقى إلا اجتماع الأطراف المختلفة حول مائدة المفاوضات ، ولعل كاتب هذه السطور يحدوه الأمل في التوصل إلى حل ، وبخاصة لو أتخذ برنامج مانديلا نفسه ورؤيته السياسية الموضوعية كبداية للمناقشة حول مائدة المفاوضات .

وهكذا يهزم البطل نلسون مانديلا بالإفراج عنه دون قيد أو شرط اليأس ويجدد الأمل في إمكانية القضاء على التعصب ، وعلى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .



صبحي الجيار

يحطم القيود

(١٩٢٧ ــ ١٩٨٧)

الحياة لوحة رائعة يمتزج فيها الأبيض والأسود .. والفنان البارع هو الذي يستخدم الظلال السوداء لتخدم المساحات البيضاء .. وهكذا أحاول أن أستفيد من البقع السوداء في حياتي .. فالحياة حلوة رغم كل شيء .

« صبحي الجيار »



عاتبني كثير من أصدقائي الكتّاب والفنانين والقراء عندما صدر كتاب « عباقرة هزموا اليأس » ولم يتضمن بين دفتيه فصلاً عن صبحي الجيار ، أيوب القرن العشرين في مصر ، وظن البعض أنه موقف شخصي ، أو إهمال من كاتب أو غير ذلك . والواقع أنني عندما فكرت في شخصيات هذا الكتاب منذ البداية كانت شخصية صديقي العزيز « صبحي الجيار » من الشخصيات الأولى التي خطرت على بالي ، وانتظرت أن أكتب عنها في الوقت المناسب ، وبالمساحة اللائقة ، فصبحي الجيار يستحق كتابًا عنه وحده ، وليس ذلك فضلاً ، إلا أنه بسبب عامل السرعة والمادة ، اضطررت أن أكتب هذا الفصل لمجرد إلقاء الضوء على هذا الإنسان الكبير الذي عاش بيننا كطيف خيال ، يتألم كثيرًا ويتوجع في صمت ولكنه يبتسم ملء شدقيه ، يعاني من آلام مبرحة لكنه يهتف الحياة حلوة رغم كل شيء ، لا يتحرك من فوق سريره ، لكنه يحرك الجميع بفكره وآرائه الصائبة ، ونظرته الموضوعية لكل مشاكلنا وحياتنا ، إنه صبحي الجيار « أيوب العصر » كما أطلق عليه الكاتب الكبير أحمد بهجت . وهو — كما يقول الكاتب الكبير أنيس منصور — مثال عالٍ يجب أن يذكره من له يدان ولا يعمل .. وله ساقان ولا يتحرك .

* كانت البداية في السابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٧ ، حيث رزق عزيز أمين الجيار التاجر المعروف بمصر القديمة بطفل أسماه صبحي ، ثم اتخذ لقب الجيار بعد ذلك ، فقد كانت الأسرة من الجد الأكبر وحتى الوالد تتاجر في الجير ، ومن هنا جاء لقب الجيار . كان المعلم عزيز الجيار سعيد بمولوده الذكر الذي جاء بعد أن رزقه الله بابنتين ، ومن هنا كانت فرحة الأسرة بالمولود الجديد ، وفجأة صرخت المولِّدة في رعب عندما وجدت شيئًا مثل الثعبان يلتف حول عنق الطفل ويمنع الدماء من الوصول إلى وجهه مما جعل لونه أزرق ، وبسرعة حاولت القابلة فك هذا الثعبان من عنق الطفل وسط لهفة أمه وخوف أبيه ، واتضح بعد ذلك أن هذا الثعبان ما هو إلا الحبل السُّري وقد التف خطأً حول رقبة الطفل ، وكأن هذا الحدث نذير من السماء بما سيلاقيه هذا المولود في المستقبل من صعوبات وأمراض وقيود .

* عاش الطفل صبحي الجيار طفولة سعيدة ، يشجعه والده على الدراسة والتفوق فيها ، وتحكي له والدته قصص وحكايات الشاطر حسن ، وست الحسن والجمال ، وسكة السلامة وسكة الندامة ، وسكة اللي « يروح ما يرجعشي » وغيرها . وربما كانت هذه بداية تشجيع صاحبنا صبحي الجيار على حب القصص والحكايات حتى أصبحت هوايته ثم مهنته في المستقبل .. كانت طفولة غنية بالتفوق والهوايات والثقافة . فقد كان ترتيب صبحي في السنة الأولى الابتدائية الأول على الفصل ، وفاز بحب وصداقة مدرسيه ، وفي سنة ١٩٣٩ حصل على الشهادة الابتدائية مما أثلج قلب أبيه ، الذي أراد أن يعوض في ابنه ما افتقر هو إليه من ناحية استكمال دراسته والحصول على شهادات علمية . هوى صاحبنا الرسم وشجعه مدرس الجغرافيا على رسم الخرائط ونماذج الأجناس البشرية المتباينة . فهذا وجه زنجي ، وذاك وجه هندي ، وثالث ياباني ، واستطاع طفلنا أن يوضح ملامح الوجه لكل رسم يرسمه ، وفاز بجائزة مدرس الجغرافيا وهي نسخة من مجلة المقتطف ، وظلت هواية الرسم تشغله ، فأخذ يرسم وجوه الناس والحيوانات ، ساعده في ذلك طالب بمدرسة الفنون الجميلة العليا « كلية الفنون حاليًا » كان يسكن في المنزل المقابل له ، وكان صبحي يعرض عليه أعماله الفنية ليتعرف على رأيه ونقده ، وعندما بلغ سن الشباب بعد القيود التي فرضها عليه المرض اهتم بدراسة فن الرسم حتى يحترفه ، فقرأ كتابا في فن الرسم هو « الفن والجمال » ، ثم أعد لنفسه أرشيفًا ضخمًا من الصور المتباينة ، يرجع إليه كلما احتاج أن يتعرف على جزء معين من أجزاء الجسم ، أو زاوية أو ظلال ليتمرن عليها . ولم يكتف بذلك ، بل انضم إلى كلية لندن للفن ليدرس فيها عن طريق المراسلة . وكان يسدد اشتراكًا شهريا للكلية ، عبارة عن جنيه استرليني ويضع شلنات عن طريق أحد البنوك . هكذا أتقن صبحي الجيار هواية الرسم ، حتى أصبحت مهنته في المستقبل بجانب الأدب والصحافة والترجمة .

* اهتم صاحبنا في طفولته بإتقان هوايات كثيرة ، فبجانب الرسم اهتم بالموسيقى وتقليد الأصوات واصلاح الأشياء المعطوبة والابتكار وبالقصة

والترجمة والتثقيف الذاتي ، وبدأت هوايته للقراءة في سن مبكرة ، ولما لم يجد في البيت كتبًا إلا الصحف وحسب ، بدأ يشتري من مصروفه الخاص مجلات « البعكوكة والاثنين والدنيا » و« آخر ساعة » و« المصور »، و« قصص للجميع » و« القصة » و« روايات الجيب » ، كما بدأ وهو في هذه السن المبكرة تكوين مكتبة صغيرة له ، تحوى كتب الرحالة محمد ثابت ، وكتبًا عن المراهقة والتصوير الفوتوغرافي ، وعلم الكف والمرأة والرجل وكتب الحكيم وغير ذلك .

وفي سن العاشرة نشرت له مجلة البعكوكة فكاهة قصيرة كان قد أرسلها إليها ، وشعر باعتزاز عندما قرأها في المجلة وتحتها اسمه كاملاً ، وكانت هذه أول مرة يقرأ اسمه في مجلة ، فكانت فرحته كبيرة ، وازداد شغفه وحبه للقراءة والثقافة .

* هكذا كانت طفولة صاحبنا سعيدة ناجحة مليئة بالهوايات المفيدة الكثيرة ، و لم يفته جانب الرياضة فكان رئيسًا لفريق الأسد بالكشافة بالمدرسة ، مما يدل على مدى تمتعه بالصحة العقلية والجسمية أيضًا . هذه الطفولة السعيدة الغنية بالهوايات والحركة والثقافة هي التي ساعدت صبحي الجيار بعد ذلك على تحمل محنة المرض والتفوق عليه وهزيمة اليأس . فقد كانت هواياته هي الأسلحة التي حارب بها اليأس وانتصر عليه ، ول لم يكن عنده هوايات عديدة يشغل بها وقته أثناء القيود التي فرضها عليه المرض ، بل ويتخذ منها مهنة بعد ذلك ، لكانت القيود قد حطمته ، أو كان صبحي الجيار مجرد مريض في مستشفى وليس أديبًا وفنانًا وعلمًا من أعلام المجتمع .

* بعد حصوله على الشهادة الابتدائية التحق صبحي الجيار بمدرسة الإبراهيمية الثانوية بجاردن سيتي ، وكانت من أرق المدارس الثانوية وقتذاك ، ومع ذلك فقد أغضبه سوء سلوك زملائه وألفاظهم غير المهذبة مما دفعه إلى أن ينطوي على نفسه بعيدًا عنهم ، وكالعادة كان من بين الأوائل في السنة الأولى الثانوية ، وانتقل إلى السنة الثانية ثم السنة الثالثة . وفي مساء ٢٣ سبتمبر ١٩٤١ كان

يلعب الكرة مع أخيه وبعض أقاربه وأصدقائه ، وبعد مباراة حماسية ، وفيما هو في طريق عودته إلى البيت مع أخيه ، شعر بألم شديد في كعب قدمه اليمنى ، وكأن مسمارًا يخترق حذاءه ثم قدمه . كانت هذه بداية القيود في حياته ، بداية المرض اللعين الذي بدأ يهاجمه رويدًا رويدًا حتى تمكن في النهاية من جسمه ، لهذا فقد حفر هذا التاريخ في ذاكرته فلم ينسه .. بدأ المرض بكعب القدم اليمنى ، ثم امتد إلى الركبة ، ثم إلى الركبة اليسرى ، فالفخذ الأيمن . وبعد شهرين بدأ الداء يمتد إلى العمود الفقري مهددًا حياته وحركته ، ولم يهدأ والده أو يستكين بل أخذ يتنقل به من طبيب إلى آخر ، حتى أساتذة الطب بالجامعة ذهب إليهم دون جدوى ، كان تشخيص الأطباء للمرض على أنه روماتيزم حاد يصيب المفاصل لكن الدواء الذي ملأ عشرات (الروشتات) لم يُذهب الداء ويشفي المريض ، واضطر الوالد أن يحمل ابنه إلى أماكن أخرى للعلاج ، كالعلاج الروحي ، بل وكل وسيلة يمكن أن تنعم على فلذة كبده بالشفاء ، ووسط هذا اليأس والضيق يتسلم المعلم عزيز إخطارًا من مدرسة ابنه يفيد بموافقة وزارة المعارف (التربية والتعليم حاليًا) على حصول صبحي الجيار على مجانية التفوق ، وتدمع عينا الوالد متأثرة بانفعالين ، الفرحة لابنه المتفوق ، والحزن على المرض الذي يمنعه من الذهاب إلى المدرسة واستكمال تعليمه . استمرت محاولات العلاج وظل الأمل يداعب الفتى بأنه سيقوم من رقدته ويمشي ويذهب هنا وهناك كأي انسان . وفي شهر أكتوبر ١٩٤٣ ، أي بعد سنتين تقريبًا من بداية المرض ، شعر صاحبنا بأن المرض يتملك من جسمه ، وأن القيود تزداد . من هنا فكر أن يدرس وهو على سرير مرضه ، حتى يكسب الوقت ، ويأتي فرج الله . وفعلاً تقدم مع أخيه لامتحان إتمام شهادة الثقافة العامة وساعده أخوه بكراسات المدرسة والكتب اللازمة واستطاع أن يحصل على شهادة الثقافة العامة نظام طلبة المنازل ، وكذلك نجح شقيقه أيضًا .

وعلى الرغم من قيود المرض ، كان صبحي الجيار منطلقًا فكرًا وثقافة ، أخذ يشبع هوايته في القراءة بعامة ، وفي الأدب وفروعه المختلفة بخاصة . واستطاع

وهو في السابعة عشرة من عمره أن يتعرف على فكر جبران خليل جبران ، والدكتور طه حسين ، والشاعر علي محمود طه ، وتوفيق الحكيم ، وتولستوي ، وفكتور هوجو وشكسبير وبرنارد شو وغيرهم .. ووجد صاحبنا من يساعده على إشباع هوايته في القراءة ، سواء كان شقيقه أو زوج أخته وكان يهتم بأن يُشغل وقت فراغه الكثير بما يفيد .

استطاع الداء اللعين أن يتمكن تمامًا من صبحي الجيار ويقيد حركته ، فقد التصقت كل مفاصله وتعطلت ، ولم يعد جسمه يتحرك ما عدا الكتفين ونصف الزراعين ، وأصابع اليد ، وعلى حد قوله ، فإنه لم يكن يشغل من هذا العالم العريض سوى ما يشغله جسد ميت في قبره ، وتعال نسمعه وهو يحكي آلامه :

لم يكتف القدر بأن جعلني أكاد أشبه تمثالاً متحجرًا ، بل راح ينكل بي في قسوة ، ولم أكن بلغت بعد الخمسة عشرة من عمرى . ومن ثم حرمنى من الصحة ، بعد أن كنت اتدفق قوة وحيوية ، ومن العلم برغم شغفي به ، ومن العمل برغم طموحي ، ومن المال برغم احتياجي المضاعف إليه لتغطية مصاريف علاجي وخدمتي . ومن العاطفة برغم مشاعرى الجياشة ، ومن الزوجة والأبناء برغم تقديسي للحياة العائلية ، حتى وجدت نفسى حبيسًا في قوقعة من اليأس والشقاء . كنت انظر حولي فلا أجد شعاعًا واحدًا من الأمل أشق على هديه طريقي في الحياة .

* هذا عن الآلام ، فماذا كان موقف صبحي الجيار من الحياة ؟ وكيف كان يفكر في مستقبله ؟ يجيب صاحبنا قائلاً :

* لم أستسلم لليأس . وبدأت من نقطة الصفر . فتناسيت قيودي . وخضت صراعًا مريرًا مع القدر ، أغلبه مرّة ، ويعرقلني مرات . واستفدت من مواهبي الطبيعية ، فنميتها بالدراسة والمثابرة والكفاح المتفائل العنيد . واستطعت بسن قلمى أن أثقب جدار سجنى ، وأخرج منه إلى عالم الأحياء .

* كان الفتى صبحي الجيار قد رسم مستقبله على أن يلتحق بكلية الهندسة ،

فهو على الرغم من هواياته الفنية والأدبية يهوى الابتكار ويحب العلوم والرياضة . وصنع مظلة هابطة « باراشوت »، و« كوفية » صوف لنفسه ، كذلك كان يجيد استخدام ماكينة الخياطة مما دفع والدته إلى أن تعهد إليه بحياكة جلاليب أولاد المربية ، وفي ظل هذه القيود كان طبيعيًا أن يغير صاحبنا هدفه ، ويلغي فكرة التحاقه بكلية الهندسة . وآمن بالحكمة القائلة .. إن لم يكن ما تريد فأرد ما يكون . وما كان أمامه إلا أن يتقن هواياته الفنية والأدبية والتي يستطيع أن يمارسها في وضعه الجديد ، وكما قلنا في البداية اهتم بدراسة فن الرسم حتى أتقنه ، بجانب هواية القراءة التي خلقت منه أديبًا وصحفيًا معروفًا بعد ذلك . واستغل موهبته في الرسم ، فرسم نفسه في أوضاع مثالية ليعوض النقص الذي يشعر به في حياته وواقعه المؤلم ، فتراه يرسم نفسه فارع الطول ، قوي العضلات ، ينبض جسمه بالقوة والحركة الرشيقة ، وكأنه راقص باليه . وفي ١٩٤٦ قرأ إعلانًا عن طلب رسام لمجلة اسمها « المصباح » فأرسل لصاحبها يبلغه بأنه يريد أن يعمل في المجلة تطوعًا دون أجر . ونشرت له مجلة المصباح ثلاث صور كاريكاتيرية من ابتكاره وتحتها اسمه مسبوقًا بلقب « أستاذ » ، مما زاد سعادته ، ثم بدأ ينشر في مجلات أخرى مثل مجلة « بلادي » وأخبار الدنيا ، والبعكوكة . وفي الفترة بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٥١ لازمه سوء الحظ ، فلم ينشر له أي إنتاج مما جعله يفكر في مستقبله وكيف يمكن أن يحصل على لقمة العيش من عرق جبينه كأي إنسان ؟ فكر في أن يعمل سكرتيرًا عموميًا عن طريق التليفون ، ويحصل بذلك على اشتراك شهرى كمرتب له ، ثم فكر أيضًا في أن يعطي دروسًا خصوصية للطلبة ، لكن حساسيته وحبه للناس والجيران جعله يعطي الدروس الخصوصية هذه مجانًا ، باستثناء طالب واحد شرح له اللغة الفرنسية ونجح الطالب فمنحه أبوه خمسة جنيهات كانت أكبر مبلغ يدخل جيب صاحبنا من عرق جبينه ، كذلك فكر أن يعمل بتلوين التماثيل والفازات بالألوان الزيتية بل وأن يعمل بالتجارة أيضًا ، وفتح له زوج أخته محلاً تجاريًا ، ولكن المحل حقق خسارة لعدم وجود صاحبه ، إذ كان صبحي الجيار يشرف عليه من على سرير المرض ، مما شجع المسئول عنه على سرقته .

* من الأحداث والتواريخ الهامة التي لم ينسها صاحبنا طوال حياته ٤ مارس ١٩٤٨ ، ففي هذا اليوم أهدته السماء هدية لم يكن يحلم بها ، إنها سكرتيرته النشيطة وممرضته الحنون نعمات حامد عيسى التي عاشت في خدمته مدة ٣٩ سنة إلا ستة أيام ، منذ وصولها إلى أن رحل من عالمنا في الخامس والعشرين من شهر فبراير ١٩٨٧ . يقول صبحي الجيار عن السيدة نعمات :

بددت كثيرًا من ظلمات يأسي ، وعوضت كثيرًا من قيودي وعجزى . وأعانتني على الكفاح والتفرغ لمعارك الحياة ، بعد أن أمنت بعض مخاوفي من المستقبل ، ووفرت لي سبل الراحة والطمأنينة ، ولم تتخل عني يومًا واحدًا ، وتفانت في خدمتي .. بإخلاص وتضحية .. ويقظة ضمير .. وتقدير للمسئولية الجسيمة في تولي جميع شئوني .

* كان وصول نعمات إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في حياة صبحي الجيار ، فمع وصولها بدأت الحياة تبتسم له ، وبدأ ينظم وقته وعمله سعيًا وراء لقمة العيش . عاد صاحبنا يستنجد بهواياته الرئيسية لعله يتقنها ويحترفها ، وكان قد احترف الرسم ، فانكب على التأليف والترجمة والقراءة ، وأخذ يراسل الصحف والمجلات بحثًا عن عمل . وكانت سنة ١٩٥١ بداية الانطلاقة الحقيقية للعمل ، فأخذت البعكوكة تنشر له كل أسبوع بعض رسوماته ، وحصل منها على مرتب شهرى بلغ خمسة جنيهات تقريبًا مما أنعش ميزانيته ، ورفع من روحه المعنوية ، ولم يكتف بالرسم في مجلة البعكوكة ، بل تعرف في سنة ١٩٥٢ بمجلة أخرى اسمها « روايات الأسبوع » وأخذ يرسم لها أيضًا ولكن دون مقابل ، فقد عرف بحسه الصحفي أنه يحتاج إلى كسب وشهرة أدبية حتى ينتشر اسمه ، وهذا في حد ذاته أجدى من الكسب المادي . ثم تفرغ لمجلة « روايات الأسبوع » حتى أصبح سكرتير التحرير والمحرر الفني لها وهو على سرير مرضه لا يتحرك ، بفضل نشاطه وحبه للعمل ، واحترام صاحب المجلة لأفكاره وقدراته الفنية . ولم يكتف الجيار بالرسم فحسب بل القصة أيضًا ، ونشرت له « روايات الأسبوع » قصة بعنوان « وأخيرًا وجدها » . وهكذا وجد صاحبنا فرصته في مجلة روايات الأسبوع ، فأخذ ينشر فيها رسوماته

وقصصه ، وحرر فيها أبوابًا جديدة تحت عنوان .. بريد المفتي ، وحكايات قصيرة ،كذلك ترجم بعض القصص البوليسية ، ومع أنه في البداية كان يعمل متبرعًا دون أجر ، وبهدف الشهرة والكسب الأدبي ، إلا أن صاحب المجلة منحه مرتبًا شهريا قدره خمسة جنيهات ، نتيجة للجهد الكبير الذي يبذله ، وظل كذلك حتى توقفت روايات الأسبوع عن الصدور ، ولم ييأس صبحي الجيار ، بل أخذ يفكر في مخرج ليجد لنفسه عملاً ، وسأل نفسه لماذا لا يصدر هو مجلة خاصة يشرف عليها ، ولا سيما أنه قد اكتسب خبرة طويلة من عمله السابق ؟ وبعد تفكير واعٍ وإعداد منظم صدر العدد الأول من مجلة قصتي في الثالث من شهر يناير سنة ١٩٥٤ ، وقد أطلق عليها اسم قصتي لأن المادة الرئيسية فيها كانت القصة القصيرة ، عربية ومترجمة ، واستطاعت مجلة قصتي أن تثبت جدارتها في السوق ، بل وتدرب فيها بعض الصحفيين الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد مثل أحمد بهجت ، محمد الخضري عبد الحميد ، وصبري موسى ، محمد تبارك ، عبد العال الحمامصي وغيرهم . وكان فضل اكتشافهم وتشجيعهم يعود إلى صبحي الجيار بالطبع ، وعلى الرغم من نجاح مجلة قصتي إلا أنها توقفت عن الصدور لأسباب عدة أهمها الناحية الاقتصادية .

* كان أحمد بهجت من خريجي مدرسة مجلة قصتي ، وبعد أن توقفت عن الصدور استطاع أن يعمل في دار أخبار اليوم ، ويكتب في مجلة الجيل ، ولحبه ووفائه لصبحي الجيار كتب عنه أول تحقيق في « الجيل » جاء به : « إن صبحي الجيار نموذج مشرف للكفاح الإنساني .. من أجل الحياة .. وعلى الرغم من أنه أمضى ١٢١ ألف ساعة وهو يرقد على ظهره كالتمثال المتحجر إلا أنه لم يلعن الدنيا ، ولم ييأس أو يستسلم ، وإنما تعلم اللغات ، ودرس فن القصة والرسم وأصدر أكثر من مجلة أدبية ...» . وقد نشر هذا التحقيق في مجلة الجيل في ١٢ سبتمبر ١٩٥٥ ، وبعد نشره ذاع صيته ، وعرف الناس حكاية صبحي الجيار ، وانهالت المكالمات التليفونية عليه من الأقارب والأصدقاء والمرضى ، واكتشف صاحبنا وجود ضحايا آخرين لمرضه اللعين ، وعن طريق التليفون تعرف على مجموعة من المرضى بنفس الداء ، ولكن بطريقة أخف مما

يعانيه . عرفهم صبحي بعضهم بعضًا وكون الجميع نقابة الصابرين ، واختاروا صبحي الجيار نقيبًا « للصابرين »، فقد التهم الداء معظم مفاصله حتى أصبح أكثر الضحايا عجزًا عن الحركة . ومن أبرز أعضاء نقابة الصابرين الأديب حسين القباني الذي كان يتحرك فوق مقعد متحرك ويجوب شوارع القاهرة ، ويشارك في الندوات الثقافية ، ويساهم في الحركة الأدبية بمقالاته وقصصه ومؤلفاته التي بلغت ٢٣ كتابًا أثرى بها المكتبة العربية في الرواية ، وأدب الرحلات ، وفن القصة القصيرة والنقد والدراسات الاجتماعية.. والأديب حسين القباني هو من العباقرة المصريين الذين هزموا اليأس ، فقد عرف اليتم منذ طفولته ثم هاجمه الداء اللعين وهو طفل في الثالثة عشرة من عمره ، لكنه لم ييأس أو يستسلم للمرض ، فتعلم وابتسم للدنيا ، والتحق ببعض المعاهد البريطانية للدراسة عن طريق المراسلة ، وحصل على شهادات من هذه المعاهد ، واستطاع أن يعمل في الترجمة والكتابة حتى وصل إلى مكانة كبيرة بين الأدباء ، وعاش حوالي ٦٠ سنة .

* ومن أعضاء نقابة الصابرين أيضا الفتاة الجميلة المتفائلة نادية جاد التي كانت تتحرك على عصوين ، ورجل الأعمال المرح النشط على حسن ، والشاب الوسيم جمال مذكور وغيرهم .

* أصبح صبحي الجيار حديث الناس بفضل حبه للحياة ، وتمسكه بالأمل وهزيمته لليأس ، وكان يتلهف إلى السفر إلى أوروبا للعلاج . كان يعتقد أن العلاج في الخارج سيدفع عنه الداء ، ويعيد المفاصل إلى جسمه فيستطيع الحركة ، حتى لو كانت هذه المفاصل صناعية . أجرى معه الإذاعي الكبير فهمي عمر حديثًا في مجلة الهواء أذيع في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٨ ، تمنى فيه العلاج في الخارج . وازدادت شهرة الجيار حتى هرع إليه المعجبون من كل مكان ليوقع لهم في « الأتوجرافات التذكارية » ، كذلك أتاحت له شهرته فرصة العمل في أكثر من مجلة معروفة . وفي هذه الأثناء أحبته مليونيرة حسناء ، وبادلها الحب ، وكانت تجربة عاطفية لم يصدقها في البداية ، لكنها كانت واقعًا عاش فيه حوالي أربع سنوات .

* في شهر مارس سنة ١٩٥٩ تحقق حلم صبحي الجيار في العلاج في الخارج ، وأصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارًا جمهوريًا بعلاج صبحي الجيار وحسين القباني في الخارج على نفقة الدولة .

* شخص الأطباء مرض الجيار بأنه روماتيزم ، ثم تحدد نوع الروماتيزم وأصبح اسمه « التهاب مفصلي حاد » ثم اكتسب اسمًا آخر بحكم الأقدمية فأصبح « التهاب مفصلي مزمن » ، وهو مرض عجيب يختار ضحاياه من المراهقين غالبًا . من طبيعة هذا المرض أنه يسبب آلامًا شديدة في المفاصل ، نتيجة تآكل الغضاريف التي تكسو أطرف العظام ، وتساعد على حركتها وانزلاقها . فإذا ما تآكلت هذه الطبقة الملساء يتحرك المفصل على سطحين خشنين متآكلين ، فيصدر عنه صوت يشبه صوت تمزيق القماش . ويسبب آلامًا فظيعة فإذا بالمصاب يحد من حركته تفاديا للألم غير المحتمل . وهنا تبدأ المرحلة الثانية من المرض ، فيجف السائل الطبيعي الذي كان بمثابة الزيت في المفصل ، وبعد أن تتآكل الغضاريف تظهر من خلفها طبقة العظم الإسفنجية .. وهي مادة قابلة للالتصاق السريع ، وسرعان ما يندمج طرفا المفصل في نسيج واحد ، كأنه عظمة متينة واحدة ، تتخذ الشكل الذي ييسره لها المريض ، ولا يصبح للمفصل أي أثر إلا مظهره الخارجي ليذكر صاحبه بأنه في هذا المكان كان يوجد ذات يوم مفصل متحرك . وعندما اكتشف الأطباء ما وصلت إليه حالة صبحي الجيار ، أضافوا إلى اسم مرضه لقبًا جديدًا ، فأصبح اسمه الرباعي « التهاب مفصلي التصاقي مزمن Chronic Ankylosis Spondylitis» . وبالنسبة لصبحي الجيار ، فقد التهم المرض مفاصل الكعبين والركبتين والفخذين ومفاصل العمود الفقري ، بما فيه الرقبة والضلوع ، ثم الكتفين ، وأخيرًا اختنق المرض عند المرفقين فلم يدمرهما تمامًا ، وترك لكل منهما نصف المجال الذي تتحرك فيه الذراع العادية . واستطاع صاحبنا أن يتأقلم مع الوضع المرضي الجديد . فأخذ يتحايل على الحركة المحدودة من المرفقين وحركة أصابع اليد لكي يكتب ويرسم ويمسك بالكتاب ليقرأ ، وبالملعقة والشوكة الطويلتين ليوصل الطعام إلى فمه .. وكان المرض يغزو أحيانًا أجزاء أخرى من أهم مراكز

الحركة الخطيرة في جسده مثل مفصلي الفكين وأصابع اليدين ، لكن هذه كانت نوبات طارئة وهو يشكر الله كثيرًا على هذه النعمة ، فلو كانت هذه حالة دائمة لانغلق فمه تمامًا ، ولتحجرت أصابع يده ، فيعجز بالتالي عن تناول الطعام والكتابة .

* في نفس العام الذي صدر فيه القرار الجمهوري بعلاج صبحي الجيار في الخارج على نفقة الدولة طار إلى انجلترا ومعه صديقه الأديب حسين القباني ، الذي كان يعاني من نفس المرض ، ولكن بطريقة أخف ، فقد كان يتحرك على مقعد متحرك ، واستقر المريضان في مستشفى « لندن كلينيك » للعلاج ، وأجريت الأشعات والدراسات الخاصة على حالة صبحي الجيار ، ثم أجريت عملية تركيب مفصل معدني في الركبة ولكن العملية لم تنجح ، وقضى صاحبنا حوالي خمسة أشهر في لندن للعلاج دون جدوى . وجاء بالتقرير النهائي عن حالته .. إن أطباء المستشفى يأسفون لأنهم لم يتمكنوا من تحقيق أمل المريض في الشفاء على الرغم من أنه كان في منتهى الشجاعة والتعاون معهم ..

* تملك اليأس والإحباط من نفسية صبحي الجيار بعد محاولة العلاج هذه ، إذ أنه كان يبني عليها أملاً كبيرًا . وشعر أن مستقبله مظلم ، وأنه سيعيش طوال حياته كالتمثال المتحجر راقدًا على السرير ، وما هي إلا أيام قليلة ، حتى عاد صاحبنا إلى طبيعته المتفائلة المرحة التي ورثها عن أمه . تذكر أنه نقيب الصابرين ، فكيف يتسرب اليأس إلى نفسه ؟ .. بدأ يفكر في مستقبله وعمله ، وبدأ نشاطه فعلاً في لندن قبل العودة ، فكتب أربع قصص وعدة مقالات لمجلة آخر ساعة ، كذلك رسم عدة لوحات بالقلم الرصاص .

عاد صاحبنا إلى بلده حيث الأهل والأصدقاء ، وقد أعد نفسه للعمل الجاد ، وابتسمت له الحياة مرة أخرى عندما قدمت له وزارة الثقافة منحة تفرغ لمدة عامين كاملين ، ليكتب خلالهما قصة حياته بمرتب شهري قدره ستون جنيهًا (كان هذا المبلغ عام ١٩٦٠ يعد مبلغًا كبيرًا جدًا وخاصة لو عرفنا أن خريجي الجامعة كانوا يحصلون في ذلك الحين على مرتب شهري لا يتجاوز

١٧ جنيهًا فقط) . وفتحت الإذاعة ذراعيها ترحب بإنتاج صبحي الجيار القصصي ، فقد عهد إليه الإذاعي الكبير فهمي عمر الإشراف على صفحة ثابتة في برنامجه مجلة الهواء ، وهي صفحة نافذة على الأدب ، وكذلك رحبت الإذاعية سامية صادق — رئيس التليفزيون السابق — بإذاعة إنتاجه في برنامجها « حول الأسرة البيضاء » وبدأ نجم صاحبنا يسطع ، ونسى آلامه في زحمة حبه للعمل ، وصدرت له عدة مؤلفات أهمها :

* لماذا قدر على هذا؟ صدر سنة ١٩٦٠ .
* يستر عرضك .. مجموعة قصصية .. ١٩٦١ .
* سوق العبيد .. مجموعة قصصية .. ١٩٦٣ .
* العيون الزرق .. مجموعة قصصية .. ١٩٦٥ .
* ربع قرن في القيود .. ترجمة ذاتية في ثلاث أجزاء .. ١٩٦٨ .
* على الأرض السلام .. مجمعوة قصصية .. ١٩٧٢ .

كذلك ترجم عدة كتب إلى اللغة العربية هي :

* رواية معركة السفينة .. تأليف الأمريكي فكتور مايز .. ١٩٦٢ .
* قصة فيلادلفيا .. مسرحية فرانك ستوكتون .. ١٩٦٤ .
* السيف المعقوف .. تأليف هارولد لامب .. ١٩٦٨ .
* الشمس كم هي نائية .. تأليف روبرت تشوسيتش .. ١٩٧١ .
* برج العذراء .. ١٩٧٣ .
* كيف تقوى ذاكرتك .. ١٩٧٤ .

* وحصل صبحي الجيار على جائزة مسابقة نادي القصة الأولى الشرفية عام ١٩٥٨ ، كذلك فاز بجائزة الدولة التشجيعية في التراجم الأدبية عن كتابه ربع قرن في القيود ، ثلاثة أجزاء عام ١٩٧٠ ، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى في العلوم والفنون والآداب عام ١٩٧٠ . وفي كتابه هذا يعرض لقصة حياته ، وكيف بدأت بمأساة المرض ، ثم الكفاح المرير ضد هذا المرض ، ومن أجل لقمة العيش وأخيرًا الحصاد الوفير نتيجة للصبر والتحمل والعمل الجاد . وقد

أهله عمله وكفاحه لأن يصبح عضوًا في نادي القصة ، وفي نقابة الصحفيين ، وفي اتحاد الكتاب والأدباء .

* كنت أزوره في حجرته التي كانت عالمه الذي يعيش فيه ، وكنت أبدي إعجابي بنظامها ، ولمسات الفن فيها ، وكان يقول .. إنها عالمي فلا بد أن تكون كذلك ، وفي الحجرة كانت رسوماته تنتشر هنا وهناك ، وكان بها دولاب للموسوعات ، واثنان من أجهزة التليفزيون ، وأربعة مسجلات كان يسمع منها الموسيقى أثناء عمله طوال الليل ، وكما نقول في أمثالنا الشعبية « الحاجة أم الاختراع » ، لم ينس صبحي الجيار هوايته القديمة في الابتكار ، فقد صنع لنفسه ونشًا (رافعة) ينقله من على السرير إلى المقعد المتحرك الذي يتوجه به إلى الحمام كذلك صنع مرآة خاصة يستطيع أن يشاهد بها كل زواره المنتشرين في حجرته ، حيث أنه لا يستطيع الحركة ومن ثم فإنه — قبل ابتكاره هذه المرآة — لم يكن يستطيع رؤية أحد إلا في زاوية معينة .

* ولصبحي الجيار كلمات حكيمة وآراء كثيرة نافعة لنا ، وللأجيال القادمة بعدنا ، أذكر منها :

* الصداقة نعمة عظيمة ، والأصدقاء ثروة روحية هائلة . ولكي أحتفظ بأصدقائي يجب أن أدفع الثمن . فأخدمهم ولو على حساب راحتي ، وأتسامح معهم ولو على حساب أعصابي وأتقبل خدماتهم بامتنان ، ومهما كانت بسيطة ، ولا أفترض فيهم الكمال ، فالكمال لله وحده .

* كما أن الانسان يحتاج إلى مواد غذائية متنوعة لبناء جسده وسد احتياجاته ، كذلك القراءة المتنوعة ، والثقافة الموسوعية تساعد الإنسان على بناء شخصيته .

* أنا لا أترفع عن التعلم ممن هم دوني .. حتى الحيوانات التي أقتنيها . فمن الكلب أتعلم الوفاء لصاحبه والتسامح معه .. رغم قدرته على الانتقام ، ومن الحمام أتعلم كيف يرعى الذكر أنثاه ويساعدها في أعباء الحياة .. ومن الأرنبة التي تنتزع شعرها لتدفيء به صغارها ، أتعلم التضحية والإيثار ، ومن الديك أتعلم الكرامة والشهامة في حماية أسرته ورعايتها .. ومن النمل أتعلم الكفاح

الدؤوب وفضيلة الادخار .

* إذا أصابني شر لا أعاتب السماء ، أو أسخط على الدنيا ، بل أبحث عن السبب في أعماق ذاتي وتصرفاتي ، بروح محايدة أمينة ، وسرعان ما اكتشف الثغرة التي نفذ الشر منها .. فأغلقها .

* لعلي لا أكون مغاليًا في تفاؤلي إذا دفعني الطموح إلى المطالبة بالتأكد من صحة الإعلانات (صحف ، إذاعة ، تليفزيون) بواسطة مكتب خاص يتحرى مدى صدق وجدية البيانات التي تحويها قبل الموافقة على عرضها .. أليست الإعلانات المضللة نوعًا من جرائم الغش التجاري التي يعاقب عليها القانون ؟

* مرارة الفشل هي ثمن بخس لتجارب الحياة ، ومهما فشلت التجربة فهي تتضمن جزءًا من النجاح ، هذا الجزء هو نواة للتجربة التالية ، وهو حجر الأساس الذي أتم عليه البناء ، الذي لا يفشل هو الذي لا يعمل .

* أنا لا أؤمن إطلاقًا بالضرب كوسيلة للتربية والتهذيب ، مهما كان السبب ، والعلاقة بين الآباء والأبناء يجب أن تكون مبنية على التفاهم والعدل المطلق ، والجزاء والعقاب ، والعقاب لا يكون بالضرب ، وإنما يكون بالحرمان من لعبة أو رداء جديد أو نزهة أو مشاهدة التليفزيون .

* عاش الأديب والصحفي والفنان صبحي الجيار ستين سنة إلا يومًا واحدًا ، فقد ولد في ٢٧ فبراير ١٩٢٧ ورحل في ٢٥ فبراير ١٩٨٧ . كانت حياته ملحمة كفاح ونضال يصعب على معظمنا تحملها ، لذلك أطلقوا عليه ألقابًا كثيرة منها « أيوب العصر » « نقيب الصابرين » وهزم اليأس في عقر داره ، ومن على سريره ملأ الدنيا وشغل الناس .. تحية لروحه المثابرة الطاهرة .

هل نأمل في طبع كتبه طبعات شعبية وبخاصة كتابه « ربع قرن في القيود » الذي فاز بجائزة الدولة التشجيعية .. والذي يعطى صورة لقدرة الإنسان العجيبة على الصبر والتحمل .. وهل نأمل أن يُطلق اسمه على أحد شوارع مصر القديمة ، وهي المنطقة التي وُلد وعاش ومات فيها ..

* إن صبحي الجبار هو ملحمة الصبر والأمل ، وهو دليل على قدرة الإنسان على هزيمة اليأس ، مهما طال هذا اليأس أو كبر واستفحل ، وعلى حد قوله .. الحياة حلوة رغم كل شيء ..

هوميـــروس

شاعر الملحمة ومعلم اليونان

(القرن الثامن ق.م.)



اهتم هوميروس في أشعاره بالقيم الأخلاقية السامية ، الحب ، الوفاء ، الحرية ، احترام المرأة ، والبطل الحقيقي عنده هو كل من يتقن عمله ويحبه .

على الرغم من تعدد الشعوب والأمم ، إلا أن قادة الفكر على المستوى الإنساني يمثلون شمعة مضيئة في تاريخ البشرية جمعاء ، وهم ملك لها مهما اختلفت جذورهم ولغتهم والمكان الذي شهد ميلادهم ، وربما كان هذا سبب تأكيد عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه « قادة الفكر » على أن بداوة اليونان أثرت في اليونان وفي الرومان وفي العرب ، وأثرت في الإنسانية القديمة والمتوسطة ، وهي تؤثر الآن في الإنسانية الحديثة وستؤثر فيها إلى ما شاء الله ، وإذا كان شعراء البداوة اليونانية يونان ، ولكنهم ملك للإنسانية كلها .

وإذا تحدثنا عن الشعر في اليونان كأول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القومية ، فإننا نذكر على الفور هوميروس Homerus أعظم شعراء اليونان قديمًا وحديثًا . وصفه النقاد بأنه شاعر الحياة كلها فهو زميل الصبا والشباب والشيخوخة ، لا نستطيع مفارقته مطلقًا ، ولم يبالغ أفلاطون عندما قال .. إن هوميروس معلم اليونان ، وليس هذا بالكثير على هوميروس الذي جمع شمل اليونانيين ، وتغنى بتاريخ أسلافهم ، فبعث نهضتهم ، وخلق منهم أمة قوية ، يؤمنون بدين واحد ، ويستخدمون لغة واحدة ، يحتفلون بأعياد قومية جامعة ، ويشتركون في مباريات عامة شاملة ، وهكذا فإن حضارة اليونان التي عرفت الشعر التمثيلي ، وأنشأت الفلسفة ، وخلقت الفن ، لم تكن لتوجد لو لم يظهر هذا الشعر ، فايسخولوس ، وسوفوكليس ، ويوريبيديس لم يبتكروا مسرحياتهم ابتكارًا ، وإنما التمسوا أكثرها في قصائده ، أما سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلاسفة العالم الأول ، فقد رجعوا إلى أشعاره في فلسفتهم ، لأنها كانت سجلاً حافلاً بالمثل العليا . ثم ضعفت دولة اليونان ، وظهرت دول أقوى منها ، سيطرت على العالم ومع ذلك بقى الأدباء في مختلف العصور يلتمسون نماذجهم في الإلياذة والأوديسا ــ رائعتا هوميروس ــ فيتأثرون بهما كما تأثر أدباء اليونان ، ويترجمونها إلى لغتهم ويقتبسون منهما المسرحيات ويخرجون عنها الأفلام .

ومع شهرة هوميروس الكبيرة إلا أننا لا نعرف عن حياته الكثير . فثمة

دراسات عنه منذ مئات السنين ، لكنها لم تصل لحقائق ثابتة تشفى غليل الباحث ، أو تجيب على أبسط الأسئلة حوله . وقد أدى هذا لوجود ما يسمى بالمشكلة الهومرية ، حتى أن بعض النقاد والدارسين يقولون إن هوميروس شخصية وهمية ، ليس لها وجود ، وبعض آخر يقول إنه الأمة اليونانية كلها ، وفريق ثالث يرجع الإلياذة والأوديسا إلى أسرة معينة هي الأسرة الهومرية ، وقد ساعد على ذلك عدم ذكر الشاعر حياته أو بعضها في أشعاره ، كما يذكر الشعراء دائمًا ، ولكن معظم النقاد اتفقوا أخيرًا على أن هوميروس شخصية حقيقية عاشت في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، وتُحدثنا أشهر الروايات الوثائقية بأن كريثيس انجبت طفلاً بمدينة سمورنا Smurna وسمته مليسيجنيس Melesigenes نسبة لنهر مليس الذي ولدته بالقرب من ضفته . أما لقب هوميروس فقد حمله بعد ذلك ومعناه الأعمى وذلك بعد أن أصيب بالرمد وفقد بصره تمامًا ، وقد اهتمت كريثيس بابنها فأحضرت له معلمًا ــ ويقال إنها تزوجته ــ اهتم بطفلها واكتشف فيه ذكاء غير عادي ، ونبوغًا مبكرًا ، مما زاده عناية به وبتثقيفه ، كان الطفل قوي الملاحظة ، محبًا للإطلاع ، شغوفًا بالبحث ، مما جلعه يتفوق على كل زملائه ، بل ومن الطريف أنه نافس معلمه ، فلما مات المعلم تولى هوميروس الإشراف على المدرسة ، وأثبت كفاءة في إدارتها ، فأعجب به أهل بلده ، وذاعت شهرته بين المدن ، فتسابق الناس إلى مجلسه ، يستمعون إلى أشعاره ، ويأخذون منها الحكمة ، وكان من بين هؤلاء ربان سفينة مثقف يدعى منتيس Mentes ، أحب هوميروس وأعجب بعلمه وثقافته ، وحرص على حضور مجلسه ، ثم شجعه على السفر والتنقل ليزداد خبرة بالدنيا ، وأمام إلحاح الربان ، وافق شاعرنا على السفر معه ، وترك المدرسة التي كان يدرس فيها ، وهام على وجهه مع صاحبه فزار بلادًا عديدة ، وعرف كثيرًا من السير ، وحفظ أشعارًا شتى ، وازدادت ثقافته ومعرفته بالعلم والعالم ، وانتهى به الأمر إلى جزيرة إيثاكا Ithake ، وهناك أصيبت عيناه بالرمد ، فتركه منتيس عند أحد أصدقائه حتى يستريح ويعالج ، ولم يمنع المرض هوميروس من أن يتعرف على ثقافة إيثاكا ويسمع روايات عن تاريخها ، ويحفظ أشعارها وبخاصة ما كان يحكى عن أدوسيوس ومغامراته ، وظل هناك إلى أن

عاد صديقه منتيس فحمله معه واستأنفا الأسفار فزارا كولوفن وللأسف اشتد عليه المرض هناك ، وأدى إلى فقده بصره تمامًا .

عاد هوميروس بعد فقد بصره إلى مسقط رأسه ، مدينة سمورنا حيث ذكريات الطفولة البريئة ، وأقام بها فترة قضاها في نظم الشعر ، ولكنه عانى من الفقر ، فرحل إلى مدينة نيوتوخوس يجرب حظه . وأمام أحد المتاجر وقف ينشد أبياته التي تعبر عن حال البؤس والفقر الذي يعانيه ، فأعجب التاجر بطريقته وعطف عليه وأكرمه ، وعندما سمع أهل المدينة الشاعر الوافد يتغنى بحرب طيبة ، ويرتل الترانيم الدينية ، أعجبوا به وشجعوه وأكرموا ضيافته عدة سنوات ، ثم رحل شاعرنا بعد ذلك إلى مدينة « كوما » وتوجه إلى مجلس الشيوخ ، وأنشد بعضًا من أشعاره ، خلبت ألباب سامعيه ، فطلب منهم أن يستضيفوه بينهم وينفقوا عليه ، لينظم الشعر تمجيدًا لمدينتهم ، وتخليدًا لذكراها على مر الزمان ، واستجاب القوم لطلبه إلا شيخًا واحدا قام معترضًا وقال إن الاتفاق على « عميان الشعراء » سيكلف مدينتهم ما لا طاقة لهم به ، فحول زملاءه عن عزمهم ، ومنذ ذلك اليوم لقب صاحبنا « بهوميروس » أي الأعمى بلغة كوما — ويقال إنه لقب كذلك بعد أن وقع أسيرًا في إحدى الحروب التي نشبت بين مدينتي سمورنا وساموس — ومن مدينة كوما انتقل بعد ذلك إلى مدينة فوكيا Phokaia حيث رحب به أهلها ، فأقام فيها ينظم قصائده الرائعة ، والتف حوله محبوه وتلاميذه ، ففتح لهم مدرسة يعلم فيها الشعر وفنونه ، وقواعد النظم وأصوله ، وكل ما يتعلق بعلم العروض ، وجادت قريحته بأروع الأشعار التى ضمنها كل الصفات الحميدة ، وتغنى فيها بكرم من أحسنوا إليه وخلد ذكراهم ، وأخذ هوميروس يطوف ببلاد اليونان وجزرها ، ينظم الشعر ، ويتغنى به ، فأنشد ملحمة عن « حرب طيبة »(١) تتألف من سبعة آلاف بيت يقول في مطلعها :

---

(١) تقول بعض الروايات إن هوميروس ولد في مدينة طيبة بمصر ولما كبر وترعرع نظم الشعر ثم غادر مصر وقام بأسفاره المتعددة في بلاد اليونان .

بة الشعر تمجيدًا لأرجوس الفيحاء .

حمة أخرى هي ملحمة الأبجونوى Epigonoi الذين دمروا مدينة ، هي الأخرى من سبعة آلاف بيت ، كذلك زار شاعرنا دلفي ـ . وفي مدينة أرجوس بالذات لقي إعجابًا شديدًا وكرمًا لم . أهلها بأبيات من الالياذة ، وقدموا له هدايا ثمينة بل إنهم أقاموا ا عليه هذه الأبيات :

ال هوميروس الملهم ، أقامه أهل أرجوس لأنه مجد بشعره الرائع ، كل اليونان وأهل أرجوس بالذات لأنهم دمروا أسوار طروادة ات الحصل الجميلة ..»

ت أسفار هوميروس العديدة مصدرًا رئيسيًا لكثرة ثقافته وسعة معلوماته التي تحفل بها أشعاره ، ولعل ضخامة إنتاجه وطول نا إلى الاعتقاد بأنه عاش زمنًا طويلاً ومات في شيخوخته بجزيرة عت الروايات على أنها كانت تفتخر بوجود قبره فيها ، وقبل موته ارة لتنقش على قبره :

هوميروس الذي تغنى بالأبطال ومجدهم »

تور محمد صقر خفاجة في كتابه هوميروس » ضمن سلسلة قادة ق والغرب » أن هيرودوت (أبو التاريخ) قال بظهور هوميروس قرن التاسع قبل الميلاد تقريبًا ، وقد أيدت الأبحاث الحديثة هذا عار الغنائية التي عُرفت واشتهرت بعد هذا الزمان ، تحتوى على طير مفصلة عند هوميروس ، وتمتلىء بعبارات وسطور تشير إلى ا يعرفون القصائد الهومرية تمام المعرفة ، بل كانوا يلمون بتفاصيل وصفات أشخاصها ، فالشعراء سافو والكابوس وإلكمان يصفون س كما وصفهم ، ويتحدثون عنهم كما تحدث ، بل ويستخدمون ه ، وهذا دليل على أن أشعاره كانت قد أصبحت مصدرًا معروفًا ينقلون عنه وهذا لا يتسنى إلا لقصائد قديمة نُظمت قبل ظهورهم

بوقت طويل .

عاش هوميروس إذن في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، بعد انتهاء حرب طروادة ، وقبل ازدهار الشعر الغنائي بقرون ، فاعتمد في وصفه لحوادث هذه المعركة الهائلة على الروايات التي سمعها ، والآثار التي شهدها في مدن اليونان ، ثم وصف هذه الأحداث في لوحات تصور المجتمع الذي عاش فيه والحضارات التي عاصرها ، فسجل لليونان حياتهم فيما بين القرن الثاني عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد ، وعرضها في قالب قصصي وأسلوب روائي متمكن يجمع بين الحقيقة والخيال ، ويصف المجتمع اليوناني إبان تلك الفترة التاريخية بكل آماله وآلامه وإيجابياته وسلبياته ونظمه وأخلاقه وقيمه ومعتقداته ، ومن هنا كانت أهمية أشعاره وملاحمه .

عندما يذكر اسم هوميروس يتذكر الإنسان على الفور الإلياذة والأوديسا أهم أعماله وأطولها ، وكما يقول الدكتور طه حسين فإنه لا توجد مدرسة تحترم نفسها في أوربا لا يدرس فيها الشباب الأوربي الإلياذة والأوديسا في نصوصها اليونانية أو المترجمة إلى اللغات الحديثة .

نظم هوميروس الإلياذة Ilyad ملحمة الخلود وقصيدة الزمان كما يعتبرها اليونانيون في خمسة عشر ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتًا ، قسمها علماء الإسكندرية إلى أربع وعشرين أنشودة ، ويعرض فيها الشاعر لأحداث الشهرين الأخيرين من حرب طروادة الضخمة ، والتي استمرت عشر سنوات . والطريف أن هذه الحرب المدمرة بين بلاد اليونان وطروادة كانت بسبب إمرأة ، ففي أحد الأيام اختلفت ثلاث آلهة من سكان جبل الأليمبوس هي الإلهة هيرا Hera زوجة زيوس كبير الآلهة ، والإلهة أثينا Athena إلاهة الحكمة ، وأفروديت Aphradite إلاهة الحب والجمال . اختلفن حول من هي أكثرهن جمالاً ورقة وعذوبة حتى تستحق الحصول على جائزة التفاحة الذهبية ؟ وذهبن إلى كبير الآلهة زيوس ليحكم بينهن ، ولكنه رفض أن يتدخل في الأمر ــ ربما لأن زوجته كانت بينهن ــ وأشار عليهن بالتوجه إلى أمير طروادة « باريس »

فهو خير من يحكم في مثل هذه الأمور . وذهبت الإلاهات الثلاث يبحثن عن باريس ابن ملك طروادة فوجدنه يرعى الأغنام على مقربة من المدينة ، وكم كانت دهشته حينما تجلت أمامه الإلاهات الثلاث ، وعرضن عليه السؤال ، وحاولت كل ربة أن تغريه بشيء حتى يختارها أجمل وأرق واحدة فعرضت عليه الإلهة هيرا أن تجعله سيد أوروبا وآسيا وصاحب عرش عظيم وثروة طائلة ، وقالت له الإلاهة أثينا : سأمنحك الرشاد وأجعلك أحكم الناس وأنصرك على اليونان . أما الإلاهة أفروديت فقد وعدته بأن تمنحه أجمل إمرأة على الأرض ، وأرق زوجة في العالم . ولم يفكر الأمير باريس كثيرًا ، وإنما أصدر حكمه واختار الإلاهة أفروديت كأجمل وأرق واحدة بين الإلاهات الثلاث ، وأعطاها التفاحة الذهبية . ذهبت أفروديت مع باريس بعد ذلك لتدله على أجمل إمرأة في العالم ، وهي هيلينا الفاتنة زوجة منيلاوس ملك أسبرطة . كانت هيلينا أجمل إمرأة في العالم ، ولذلك تسارع كل الأمراء من أجل الزواج بها ، واجتمعوا في بيت أبيها الذي جعلهم يقسمون جميعًا على أن يردوها إلى بيت زوجها إذا حاول أي إنسان أن يغتصبها ، ثم اختار من بينهم منيلاوس ليكون زوجًا لها .

ذهب الأمير باريس إلى أسبرطة واستقبله ملكها منيلاوس استقبالاً حافلاً كريمًا . فقد كانت العلاقات بينهما وثيقة ، ووضع الملك ثقته في الأمير الضيف ، وعندما أضطر إلى الذهاب إلى مدينة كريت تركه في بيته مع زوجته الجميلة هيلينا ، وأغرى الأمير زوجة الملك بالذهاب معه إلى طروادة ، وعبر لها عن حبه وإعجابه الشديد بها ، وهرب الاثنان من القصر . وعندما عاد الملك لم يجد زوجته فجن جنونه واستنجد بكل الملوك الإغريق ليساعدوه على استعادة زوجته هيلينا ، لكي يوفوا بقسمهم أمام أبيها . هبّ كل ملوك اليونان كي يدمروا طروادة ، وأبحرت ألف سفينة لنفس الهدف . ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين عشرة أعوام. وكان الملك بريام ملك طروادة وحوله الحكماء والشيوخ يقفون على أسوار طروادة يرقبون الحرب الدائرة حتى أقبلت نحوهم هيلينا الجميلة الفاتنة ، التي كانت سببًا في كل ما يحدث من موت ودمار ، ومع ذلك لم يكن الملك وحكماؤه يشعرون باللوم أو الضيق منها ،

إذ يجب أن يحارب الرجال من أجلها ، من أجل جمالها وفتنتها وروعتها .

وفجأة توقف القتال بين الفريقين ، وانسحب كل منهما ، ولم يعد هناك سوى منيلاوس ملك أسبرطة الزوج الذي اختطفت زوجته ، وباريس أمير طروادة العاشق الذي اختطف هيلينا الجميلة . وما أن ألقى باريس برمحه حتى انقض عليه منيلاوس فصرعه وألقاه على الأرض ميتًا وراح يسحبه إلى معسكره لولا أن أفروديت رفعته على سحابة وعادت به إلى طروادة .

كان المفروض أن تنتهي الحرب بموت باريس العاشق الولهان وتعود هيلينا إلى زوجها منيلاوس ، لولا أن ضرب أحد الجنود الطروادين منيلاوس ملك أسبرطة بسهمه فجرحه ، فثار الإغريق من هذه الخيانة وهجموا عليهم ثانية ، ونشب القتال من جديد واستمرت الحرب والدمار ، وتعالت أصوات الضحايا وامتلأت أرض المعركة بالدماء . واستمر حصار الإغريق لطروادة عدة سنوات ، حتى أصيب الجنود بالملل وقرروا وضع نهاية للحرب . أدركوا أنه لن يتحقق النصر لهم ما لم يستطيعوا التسلل إلى داخل المدينة ومفاجأة الطروادين في عقر دارهم وضربهم والانتصار عليهم . وفكر الجميع في وسيلة لدخول المدينة واقترح أوديسيوس أحد القواد فكرة استغلال وجود الحصان الخشبي ، وكان هذا مجوفًا بحيث يتسع لبضعة رجال .

اختبأ أوديسيوس وبعض رفاقه في جوف الحصان وتظاهر بقية الجيش برغبتهم في العودة إلى بلادهم بينما هم في الحقيقة كانوا مختبئين في إحدى الجزر القريبة ، وعندما غابت الشمس وجاء المساء ، ظن الطرواديون أن الإغريق جادون في انسحابهم ، فأدخلوا الحصان الخشبي إلى ديارهم وراحوا يمرحون ويشربون احتفالا بالنصر حتى استسلموا للنوم . وهنا خرج أوديسيوس ورفاقه من جوف الحصان الخشبي ، وفتحوا أبواب طروادة . فدخلت جيوش الإغريق المختبئة وأشعلوا النار في البيوت ، وقتلوا النساء والأطفال ، ودمروا كل شيء وعندما استيقظ أهل المدينة وجدوا طروادة وقد تحولت إلى قطعة من النار والجحيم ، وأخذت جيوش الإغريق تقضي على كل شيء ، وقتلت ملك طروادة

« بريام » أمام زوجاته وبناته .

وهكذا انتهت حرب طروادة بعد عشر سنوات بخدعة حربية ، وبتدمير كامل للمدينة ، وقتل الملك بعد أن قُتل باريس الأمير العاشق قبله ، وعادت هيلينا الفاتنة أجمل إمرأة في العالم إلى زوجها منيلاوس ملك أسبرطة ، الذي اصطحبها معه إلى بلاد اليونان وقد امتلأ قلبه بالنشوة والفرح بعودة زوجته .

هذا عن الإلياذة ملحمة هوميروس الخالدة ، فماذا عن الأوديسا ؟

ملحمة الأوديسا هي الرائعة الثانية لهوميروس ، وتتكون من اثني عشر ألف ومائتين وعشرة بيتا (١٢٫٢١٠) ، قسمها علماء الإسكندرية أيضًا إلى أربع وعشرين قصيدة ، تنقسم بدورها إلى ثلاثة أجزاء رئيسية هي .. أعمال تليماخوس .. ومغامرات أودوسيوس .. وانتقام أودوسيوس . وقد اهتم الشاعر في هذه الملحمة بأحداث الشهرين الأخيرين ، كما فعل في الإلياذة. يبدأ الشاعر ملحمته مستلهمًا إلاهات الشعر ليلهمنه الإنشاد الجميل ، ثم يصف لنا الأهوال التي تعرض لها أودوسيوس بعد انتهاء حرب طروادة ، وأثناء عودته إلى الوطن . فقد ضل طريقه في البحر ، وقذفت به الأمواج من جزيرة إلى أخرى ، وتعرض لأهوال كثيرة ، استمرت عشر سنوات أخرى ، غير السنوات العشر التي قضاها في حرب طروادة . وهكذا كان البطل أودسيوس بعيدًا عن بيته ، مشردًا بين الحرب والبحر والتيه ، عشرين سنة عانى فيها الكثير .

في نفس الوقت الذي كان أودوسيوس يعاني فيه من أهوال البحر والتيه ، عاد الأمراء الآخرون بعد حرب طروادة ، وانتهزوا فرصة عدم وجوده ، وأخذوا يضايقون ابنه تليماخوس وزوجته بنيلوبا Penelope ، التي حافظت على إخلاصها لزوجها طوال هذه السنوات العشرين ، ورفضت كل إغراءات الأمراء والأدعياء للزواج ، وعندما اشتد ضغط هؤلاء عليها ، وفشل ابنها في صدهم ، طلبت منهم الانتظار لعل زوجها الغائب يعود ، ووعدتهم أن ينتظروا حتى تفرغ من نسج ثوب شغلت نفسها به ، بينما كانت في الواقع تفك في الليل الخيوط التي تنسجها في النهار ، وظلت تنتظر زوجها وحبيبها

عشرين سنة إلى أن عاد ، لهذا صارت بنيلوبا رمزًا للوفاء عند اليونان .

ويحكي لنا هوميروس في ملحمته الثانية الأوذيسا عن معاناة أودوسيوس في البحر . فقد حطمت العواصف سفينته وألقت به على شواطيء مجهولة ، وجزر بها مخلوقات غريبة . فهذه جزيرة يأكل شعبها نبات اللوتس الذي يفقد الإنسان حبه وحنينه للوطن ، وتلك جزيرة يسكنها عمالقة لكل منهم عين واحدة ، وثمة جزيرة ثالثة لحورية جميلة وقعت في حب البطل وحبسته حتى يكون لها وحدها ، ولكنه كان يريد العودة إلى زوجته ، ورفض حب هذه الحورية .. وهكذا ظل يكافح عواصف البحر ومشاكل الجزر المختلفة ، حتى عاد أخيرًا إلى وطنه ، والتقى بابنه وعرف كل شيء ، فصمم على الانتقام من الأمراء الطامعين . وعندما دخل أودوسيوس إلى قصره لم يعرفه أحد فقد كان متخفيًا في ثوب شحاذ وتنكر له الجميع إلا كلبه العجوز الذى عرفه في الحال ومات من شدة فرحه به .. خرجت بنيلوبا إلى الأمراء وقالت لهم إنها ستوافق على الزواج بمن يستطيع أن يمسك بسهم أودوسيوس ويصوبه نحو الهدف. حاول الأمراء واحد الآخر أن يفعلوا ذلك ، ولكن محاولاتهم جميعًا باءت بالفشل ، وهنا تدخل الشحاذ العجوز أي « أودوسيوس » وطلب منهم أن يجرب حظه ، لكنهم سخروا منه ، فأمسك بالسهم ونجح في إصابة الهدف ، ثم ضرب بالسهم واحدًا منهم ، وأعلن للجميع أنه هو أودوسيوس . في تلك الأثناء كان تليماخوس ابنه وراعي الأغنام قد أغلقا الأبواب وجردا الأمراء من سلاحهم . دارت معركة كبيرة أشبه بمذبحة ، انتقم فيها أودوسيوس وابنه من الأمراء والأدعياء الذين نهبوا أمواله ، وذلوا ابنه ، وحاولوا الزواج بزوجته . عاد البطل إلى زوجته الفاضلة بنيلوبا .. ويشرح لنا هوميروس في نهاية ملحمته الدور الذي لعبته الإلاهة أثينا وساعدته حتى تم له النصر على أعدائه . وبعد ذلك تم إجراء الصلح بينه وبين أقارب الأمراء الأدعياء الذين أرادوا الانتقام منه ، وتنتهي الأوديسا بنشر الوئام والسلام بين الفريقين .

الملاحظ أن المادة التي استند إليها هوميروس في رائعته الإلياذة هي مزيج من التاريخ والأسطورة ، فقد ثبت تاريخيًا وجود مدينة طروادة في آسيا ، وأنها

عانت من الحرب والدمار ، وسقطت عام ١٣٠٠ أو ١٢٠٠ قبل الميلاد .

أما المادة التي استند إليها هوميروس في ملحمته الأوديسا ، فهي الخيال والأسطورة معًا . وتاريخ الأدب العالمي حافل بمثل هذه القصص والأعاجيب ، قصة الملاح الذي يضل طريقه في البحار ، ويعاني الأهوال ، ويقابل الغرائب والعجائب في الجزر المجهولة . ففي الأدب الفرعوني نقرأ قصة سنوحي الملاح التائه ، وعند الإغريق نجد الأوديسا التي نتحدث عنها ، وعند العرب نقرأ قصة السندباد ورحلاته المختلفة في ألف ليلة وليلة .

وقد أجمع القدماء والمحدثون على أن الإلياذة والأوديسا هما أجمل ما نظم شعراء الملاحم ، وأن بعض أجزائهما يعتبر أجمل ما ظهر في عالم الشعر حتى اليوم ، ويذكر المؤرخون أن الإلياذة أثرت تأثيرًا بالغًا على الإسكندر الأكبر ، فكان يتلوها المرة بعد المرة ، ويقال إنه كان يحتفظ بنسخة منها في غلاف مرصع بالجواهر ، ولعل إعجاب الإسكندر بهذه الأشعار كان نتيجة طبيعية لاهتمام أستاذه أرسطو بها ، فقد كتب لها هذا الفيلسوف شرحًا وافيًا ، كما أشاد بها في كتاب فن الشعر .

ويحدثنا الدكتور محمد صقر خفاجه في كتابه « تاريخ الأدب اليوناني »[1] عن تطور شعر الملاحم بعد هوميروس ، وكيف حاول الشعراء تقليده والاقتباس منه ؟ ويظل هوميروس أبو الملحمة ، وشاعر الشعراء ، ومعلم اليونان .

وفي كتابه المستقل عن « هوميروس »[2] يحلل الدكتور صقر خفاجه أشعار هوميروس وسبب شهرتها ونجاحها وانتشارها فيقول :

يعتبر هوميروس أعظم كتّاب وشعراء اليونان ، لأنه أوضحهم أسلوبًا ، ويرجع وضوحه إلى عنايته بترتيب الأفكار ودقة التعبير واختيار أسهل الألفاظ ،

---

(١) الدكتور محمد صقر خفاجة ـــ تاريخ الأدب اليوناني ـــ الألف كتاب ٦١ .

(٢) الدكتور محمد صقر خفاجة ـــ هوميروس ـــ قادة الفكر في الشرق والغرب ٧ .

وأكثرها انتشارًا ، وأحسنها وقعًا على النفس وأعذبها نغمًا في الأذن ، كذلك كان بارعًا في صياغة أي موضوع بأسلوب متنوع ، يجمع بين البساطة والفخامة ، وبين الدقة والسمو وبين القوة والسهولة .

امتازت أشعار هوميروس بوجود القيم الأخلاقية السامية مثل الحب الخالص ، والوفاء العظيم ، واستنكاره للعبودية ، واحترامه للإنسان العادي ، فهو يشارك الفلاح سروره أثناء الحصاد ، ويبارك البحار الذي نجا بعد أن تحطم زورقه ، ويتألم لجوع العامل الذي يكد طول النهار ، ويحزن لحزن الزوجة التي فقدت رجلها في المعركة ، ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة وينفر من جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير المعدوم . كذلك تعبر أشعاره عن إيمانه بحرية المرأة ، وسمو مكانتها في المجتمع ، ولقد امتازت الشخصيات النسائية التي رسمها بصدق العواطف ، ونبل المشاعر فكلهن مخلصات محبات لرجالهن ، متفانيات في حب أولادهن ، مؤمنات بحقوق الزوجية ، بعكس الأبطال الذين كانوا يميلون إلى تعدد الزوجات ويفاخرون بكثرة الأبناء .

والبطل عند هوميروس لا يتميز بصفات نادرة ، بل هو كل من يتقن عمله ويبرع فيه ، وعلى ذلك لم يحلق في دنيا الخيال بل عاش مع الناس ، وصور حياتهم ، وجعل الإنسان محورًا لأشعاره ، يقوم فيها بالدور الأول ، وامتاز أسلوبه أيضًا بحب التكرار ، فهو يفهم نفسية سامعيه ، ويعرف أنهم لا يحبون العجلة ، ولديهم من الوقت متسعًا يتسع لسماع مئات من الأبيات ، وهنا لم يتردد في تكرار أسطر وعبارات بل فقرات بأكملها ، ولقد بلغ مجموع الأبيات المكررة من الإلياذة والأوديسا حوالي ثلث طولهما ــ عدد أبيات الملحمتين ٢٧٨٥٣ منها ٩٢٥٣ بيتًا مكررًا [1] .

---

(١) يذكر الدكتور صلاح عدس في الكتاب الأزرق ، الإلياذة ، أن عدد أبيات الملحمتين ٢٧٩٠٣ الإلياذة ١٥٦٩٣ بيتًا والأوديسا ١٢٢١٠ بيتًا من الشعر .

ومع هذا التكرار فإن النقاد القدامى والمحدثون لم يضيقوا بهذا التكرار ، بل أثنى أرسطو عليه واعتبره ظاهرة طبيعية . ويبدو أن الأدباء والمفكرين المصابين بكف البصر يميلون إلى التكرار والإطناب فهكذا كان أسلوب عميد الأدب العربي طه حسين .. ومن ميزات الإلياذة والأوديسا دقة الوصف وبراعة التصوير . فقد أظهر هوميروس مقدرة فائقة في وصف كل ما سمع . وصور الحدائق والبساتين ، ووصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها ، حتى أن بعض المؤرخين يقولون إنه كان جراحًا وبعض آخر يقول إنه كان قائدًا أو عالمًا أو فنانًا . ويعجب القاريء لهذا الشاعر الرقيق الدقيق وبخاصة عندما يعرف أنه كان كفيفًا .

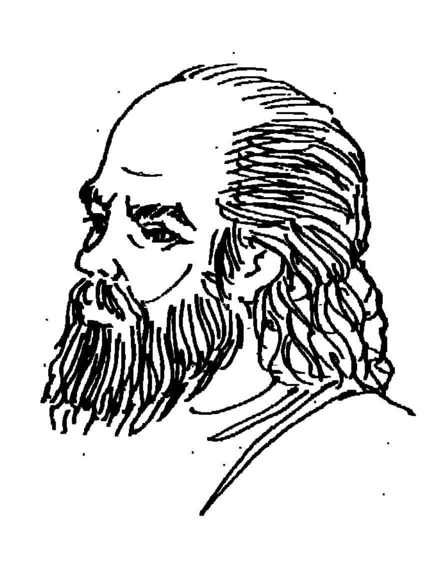
وعندي أن هوميروس أبو الملحمة ، وشاعر الشعراء ، صاحب الإلياذة والأوديسا ، عبقري من العباقرة الذين هزموا اليأس ، فبعد أن فقد بصره كان يستطيع أن يركن إلى الراحة ، ويبحث عن عمل بسيط يتفق وحالته ، لكنه لم يهتم بكف البصر وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر ، ومن جزيرة إلى أخرى ، ينهل من المعرفة ليشبع حب الاستطلاع الذي تملك عليه ، يسمع عن عادات وتقاليد وثقافة البلاد ويعرف الشعراء ، وينصت إلى الأغنيات والألحان ، ثم يبدع أشعاره الخالدة ، فلم تتوقف عبقريته الشعرية على الملحمتين الرائعتين ، بل قدم الكثير غيرهما ، حتى استحق أن يكون معلم اليونان وشاعر الشعراء وأبو الملحمة وأعظم الشعراء .



أوجست رنوار

ينشر الجمال

(١٨٤١ ـ ١٩١٩)



حقيقة أننى أتألم (من شدة المرض) وأنا أرسم .. عزائى الوحيد هو أننى أشارك في صنع الجمال الذي لا يموت ..

« رنـوار »

العمل هو قانون الحياة ، فبقدر ما تعمل بقدر ما تستطيع أن تتمتع بحياتك ، وتعرف معنى الحياة . فالحياة ليست مجرد نزهة ومتعة فحسب ، بل هي رسالة أيضًا . رسالة يجب على كل منا أن يؤديها بأمانة ويترك جهدًا وبصمة تظل بعده .. هكذا فعل أجدادنا منذ آلاف السنين ، وهكذا نفعل نحن أيضًا .. والنجاح في الحياة ليس صعبًا ، بل هو سهل ميسر ، بشرط أن نكتشف أنفسنا ومواهبنا وقدراتنا ، ونتعرف على العمل الذي يوافق استعدادنا ، وإذا استطعنا اختيار العمل المناسب لنا ولقدراتنا ، فإن النجاح يصبح شيئًا عاديًا ونتيجة حتمية لجهدنا وعرقنا (١) .

الفنان أوجست رنوار Auguste Renoir نموذج فريد للإنسان الذي يكتشف نفسه مبكرًا ، فيستطيع العطاء طوال حياته ، بل تظل حياته ذكرى طيبة ودرسًا للأجيال من بعده ، فالعباقرة الخالدون لا يموتون ، بل تصبح ذكراهم حياة أخرى ثانية .

ولد بيير أوجست رنوار في الخامس والعشرين من شهر فبراير في عام ١٨٤١ بمدينة « ليموج » الفرنسية في أسرة من الطبقة الكادحة ، فقد كان أبوه خياطًا له سبعة أبناء ، وكذلك كان جده خياطًا أيضًا ، ومن حسن طالع هذا الطفل الصغير أن تنتقل أسرته إلى « باريس » عاصمة فرنسا ، وعاصمة الفن والثقافة ، وهو لم يتخط الرابعة من عمره ، هناك ألحقته أسرته بإحدى مدارس باريس .. وفي المدرسة ، اكتشف المدرسون مواهب عديدة للطفل ، فهذا مدرس الموسيقى « شارل غونو » يكتشف في الطفل رنوار صوتًا جميلاً فيشجعه على الغناء ضمن الجوقة الكنسية ــ فريق الشمامسة ــ ويتفوق الطفل فيصبح المنشد المنفرد للجوقة ، السوليست ، ويتوقع له مدرس الموسيقى مستقبلاً باهرًا في هذا المجال ، لكن رنوار لم تكن في قلبه النار المقدسة المشتعلة شغفًا بالموسيقى .. وكذلك مدرس الرسم « الفنان جلير » يجد في رسومات

---

(١) ارجع إلى كتاب « العمل مفتاح النجاح » سلسلة علمتني الحياة لكاتب هذه السطور . الناشر مكتبة المحبة .

الطفل موهبة ، ولكنه يوبخه لأنه يرسم لكي يسعد نفسه وحسب ، أو يرسم العالم الذي يتمناه ، لا العالم الواقعي ، ويسأل المدرس تلميذه :

هل ترسم لكي تسعد نفسك وحسب ؟

أجاب رنوار الطفل وفي شجاعة أدبية وجرأة قلما يمتلكها الأطفال في مثل هذه السن :

نعم .. وإذا لم أجد في الرسم سببًا ، بل أسبابًا ، لسعادتي ، لما امتدت يدى بفرشاة على اللوحة .

هكذا بدأت موهبة رنوار تتفتح ، وتعبر عن نفسها في هذه السن الصغيرة ، وبدأ هو يحدد طريق حياته ومستقبله مع الرسم والألوان والنجاح ، وظلت حياته بعد ذلك ملحمة من اللوحات الجميلة المعبرة عن كل ما هو جميل ، حتى وصلت إلى حوالي ألف لوحة .

عندما بلغ الثالثة عشرة كان عليه أن يبحث عن عمل له حتى يكسب رزقه بنفسه ، ويساعد والده الذي يعاني من قسوة الحياة وشظف العيش ، واختار أن يعمل في مصنع للقيشاني كرسام على الأواني ، وزخرفة منتجات البورسلين والخزف . ولا شك أنه اختار العمل الذي يتفق مع ميوله ومواهبه ، فأخذ يزخرف الأطباق برسومات مختلفة للزهور والورود وثمار الفاكهة والخضر المتباينة ، والحوريات والمناظر الطبيعية الرائعة ، وكذلك اهتم برسم شخصية مارى أنطوانيت ، وبعد شيوع الآلات بدأ صاحب المصنع الاستغناء عن فناننا الصغير ، بل وتدهورت مبيعات المصنع ، فاضطر إلى التوقف عن العمل .. ولم ييأس رنوار وهو في هذه السن الصغيرة ، وبحث عن عمل آخر يتكسب منه عيشه ، واكتشف أن مودة أخرى شاعت في تلك الأيام ، وهي مراوح السيدات المزخرفة برسومات يدوية ، فأخذ يعمل بجد ونشاط وراح ينتج بكثرة ، وتمكن من توفير جزء من دخله لتحقيق حلم حياته في دراسة فن الرسم دراسة أكاديمية حتى يصقل موهبته وينمى استعداده ، ويعرف الكثير عن هذا الفن الذي ملك عليه حياته وأصبح هو مستقبله .

وحتى يتقن فنه ، ويستفيد من خبرة الفنانين السابقين ، كان رنوار يتردد كثيرًا على متحف « اللوفر » أشهر متاحف فرنسا ، بل والمتاحف الأخرى ، يقضي فيها وقت فراغه متأملاً أعمال وروائع الفنانين العالميين التي تطل عليه من فوق الجدران ، وهناك آمن بحكمة التزم بها طيلة حياته تقول :

المتحف هو المكان الذي يتعلم فيه الفنان الرسم .. فبين جدرانه ينمو إحساس الفنان بالرسم ، على نحو لا تيسره له الطبيعة وحدها .

بينما كان رنوار يبحث عن عمل جديد إذ به يسمع وهو على مقربة من أحد المقاهي مناقشة حادة بين صاحب المقهى ومقاول . كان صاحب المقهى قد كلفه بطلاء وتزيين جدران المقهى ، وطلب المقاول مبلغًا كبيرًا واختلف الأثنان فانسحب المقاول من العمل ، ووجد رنوار الفرصة مهيأة له ، فاقترب من صاحب المقهى ، وعرض عليه أن يقوم هو بالرسم لقاء مبلغ زهيد فقبل صاحب المقهى العرض ، كذلك لم يطلب رنوار أجرًا إلا بعد أن ينتهى من العمل ، وشعر رنوار بسعادة لهذه التجربة الفنية الجديدة ، والتي تتطلب أن يرسم على الجدران رسومات كبيرة لم يتعود عليها ، وفي نفس الوقت شعر بصعوبة في المحافظة على النسب فيما يرسم ، واضطر إلى أن يضع على الحائط عدة خطوط ثم ينزل من على السلم ويتأمل الحائط من بُعد معين ، ثم يعود ليصعد السلم ويستكمل العمل وينزل مرة أخرى وهكذا . ووجد أفراد أسرة صاحب المقهى الذين كانوا يتجمعون حول رنوار الصغير يشاهدونه كيف يعمل ، وجدوا في حركته في صعود وهبوط السلم حركة بهلوانية مسلية لهم تبعث في نفوسهم السعادة فكانوا لا يفارقونه . وفي خلال يومين استطاع رنوار أن ينتهي من رسم جدار المقهي ، وهو العمل الذي كان ينفذه غيره في أسبوع ، وأقبل الناس على المقهى ، يشربون البيرة ويشاهدون رسم رنوار ، ويتمتعون بها ، فهذه صورة فينوس إلاهة الجمال عند الرومان ، وتلك مناظر طبيعية خلابة . أقبل أصحاب المقاهي يطلبون من رنوار رسم جدران محلاتهم ، واستطاع رسم جدران حوالي عشرين مقهى في باريس ، وكان يأمل أن يحول جدران كل مقاهي باريس إلى لوحات فنية ، فهو فنان يحب الجمال ولا يهتم

بالمال ، ومما يؤسف له أنه لم يبق حتى الآن رسم من هذه الرسومات التي أبدعها رنوار الصغير في بداية حياته العملية وارهاصاته الفنية .

كان رينوار ــ كما قلنا ــ يدخر جزءًا من دخله منذ عرف طريقه للعمل ، حتى يستطيع الالتحاق بمدرسة الفنون ودراسة الفن دراسة أكاديمية علمية ، ووجد الفرصة بعد ذلك عام ١٨٦٢ وهو في الربيع الحادي والعشرين من عمره ، فالتحق بالدروس الليلية لمدرسة الفنون الجميلة ، حيث درس الرسم والتشريح ، كما أخذ دروسًا عملية في ستوديو شارل جلير ، ومن عجب أن شارل جلير هذا ، هو مدرس الرسم الذي اختلف مع رنوار الصغير في المدرسة الابتدائية عن مفهوم الرسم . فقد كان الطفل يرسم ليبعث السرور والبهجة إلى نفسه ، أما المدرس فقد أراد أن يرسم التلميذ ما يمليه عليه هو لمجرد الرسم ، بعيدًا عن حالته النفسية ولم يهتم رنوار بالخلاف الذي حدث مع الفنان جلير قبل ذلك ، وحاول أن يستفيد بخبرته في الرسم ، وكان يتوق إلى أن يتعلم رسم الأجسام البشرية ، وفعلاً كان نظام التدريس هو أن يقوم برسم « الموديل » عشر مرات على الأقل حتى يستفيد من التدريب ، ورسم الموديل ما هو إلا درس في تشريح الجسم ، تمامًا كما يحدث لطالب الطب عندما يدرس المرضى أو جثث الموتى ، هي عملية علمية بحتة ومهمة لدارس الفن .. ولم يكن رنوار راضيًا عن الأسلوب الأكاديمي لأستاذه السويسري « جلير » ولكنه تقبل الدراسة حتى يحصل على المباديء الأولى اللازمة لأي فنان . و الاستوديو تعرف رنوار بمجموعة من الفنانين الشبان الذين كانوا يشاركونه الرغبة في الثورة على القديم ، وإنشاء فن جديد أكثر التصاقًا بالحياة ، ومن هؤلاء الفنانين « كلود مونيه » و « بول سيزان » و« كاميل بيسارو » وغيرهم .

كانت تقاليد الرسم إبان ذلك الوقت تقضي بأن تُرسم كل لوحة داخل الاستوديو ، حتى إذا كانت صورة للطبيعة ، ولكن رنوار وأصدقاءه قرروا الثورة على هذا الأسلوب ، وخرجوا في ربيع عام ١٨٦٤ ، إلى إحدى الغابات ، حيث اهتموا بالرسم عن الطبيعة مباشرة .. وقبل هؤلاء الشبان كانت

نفس الغابة « فونتنبلو Fontainebleau » قد اجتذبت فنانًا آخر هو ادوارد مانيه Edward Manet الذي رسم عام ١٨٦٣ لوحته الشهيرة « الغداء على العشب » والمحفوظة الآن في متحف اللوفر في باريس ، ولكن مانيه أثار في ذلك الحين مشاكل كثيرة ، ومناقشات عديدة ، لأن موضوعه وأسلوبه كانا يختلفان تمامًا عن المألوف ، وعلى الرغم من الهجوم على فنه فقد صمد للثورة العاتية التي قامت ضده ، مؤكدًا الحاجة إلى أسلوب جديد في الفن يجعل فن التصوير أكثر التصاقا بالحقيقة والواقع ..وهذه الشجاعة التي تحلى بها وإيمانه بقضية التطوير ، دفعته إلى أن يكون زعيمًا للحركة الجديدة التي تبناها رنوار وأصدقاؤه ، ومن هنا بدأت مدرسة « التأثيرية » ، كان رنوار يذهب مع زملائه إلى الغابات والحدائق ، ونهر السين ، وشواطيء البحار ، للرسم من الطبيعة مباشرة . كان يتفوق عليهم بسبب خبرته السابقة في الرسم على الأواني الخزفية والبورسلين ، وحوائط المقاهي . وقد شارك بأولى لوحاته في صالون باريس عام ١٨٦٦ ، حيث كان متأثرًا بالأسلوب الواقعي ، وبأعمال فناني القرن الثامن عشر ولكنه في عام ١٨٦٨ رسم أول لوحة تعبر عن ميزاته الفنية التي اشتهر بها طوال حياته .

ويجدر بنا أن نتعرف على المدرسة التأثيرية Impressionism التي انتمى إليها رنوار في البداية ، وكونها مع مجموعة أصدقائه . تعرِّف الأستاذة فهيمة أمين ابراهيم في كتابها « قاموس مشاهير الفنانين التشكيليين الأجانب والمصريين) المدرسة التأثيرية بأنها اتجاه فن التصوير الحديث الذي ساد في فرنسا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (سنة ١٨٧٠ تقريبا) ، ثم انتشر بعد ذلك في بلدان أخرى ، واللفظ مشتق من كلمة التأثير Impression وهو إسم لوحة زيتية للفنان كلود مونيه ، عُرضت في باريس ١٨٧٧ ، وكان ظهور هذا الاتجاه أو المدرسة التأثيرية كرد فعل للتصوير الأكاديمي ، وللتصوير في المراسم وضوئها غير الطبيعي . ولم يكن الاتجاه التأثيري يعتبر المنظر الطبيعي عبارة عن مجموعة من الخطوط الواضحة أو المساحات في الألوان المحددة للعناصر المرسومة ولكنه ينظر إلى الطبيعة كمظهر ملون ، يجب أن يصور بجميع تفاصيله

الدقيقة . وعلى هذا يعتبر هذا الإتجاه نوعًا جديدًا للمذهب الطبيعي ، وهو لا يصور المنظر وفق بتاته الطبيعي ، وإنما يصوره كما يبدو في أوقات التصوير في محاولة لنقل تأثرهم بالأضواء المنعكسة عن العناصر التي يرسمونها دون تحديد للخط الخارجي المحدد لهذه العناصر . وكأى اتجاه أو نظرية أو مدرسة جديدة ، وجدت التأثيرية هجومًا شديدًا من التقليديين الكلاسيكيين ، ودارت مناقشات حامية بين القديم والجديد كلٌ يحاول أن يثبت صواب رأيه ، واشتط أصحاب النظرية الجديدة فطالبوا بحرق متحف اللوفر ، إلا أن رنوار عارض هذا الاقتراح .

لم يكن « جلير » الفنان العجوز صاحب الأستوديو الذي يتدرب فيه الفنانون الجدد راضيًا عن اتجاه تلاميذه ، إلا أنه ظل يوالي تعليمهم الرسم على طريقته ، وترك رنوار التدريب بعد أن حقق ما يريد من المعرفة واكتساب الخبرة ، وعاد إلى العمل ، لحاجته إليه وليسد رمقه ويستطيع العيش ، وظل يجمع بين عمله وانتمائه إلى جماعة الفن الجديد ، وشجعه والده على رسم الأشخاص ، وتردد فناننا في البداية ، ولكنه بدأ يرسم وجوه الأشخاص Portraits حتى أتقنه . في عام ١٨٦٥ اشتعلت الحرب البروسية الفرنسية ، ووجد رنوار الفرصة في التعبير عن وطنيته ، فالتحق بالجيش وظل مجندًا ، إلى أن انتهت الحرب ، فعاد إلى باريس وعاد معه كل زملاء الفن ، أصحـ المدرسة التأثيرية الجديدة .. سيسلي .. و بازيل .. و مونيه ، وقاموا برحلا التقليدية على شواطيء نهر السين ، وضفاف البحر ، للرسم عن الطبيعة مباشر .. واهتم رنوار في هذه المرحلة برسم وجوه الأشخاص ، بينما انصرف زملاؤه إلى رسم المناظر الطبيعية .. كما كان أشد اهتمامًا بإشاعة البهجة في لوحاته . فالألوان الصافية والأضواء المتلألئة ، ليست عنده غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة لبناء الشكل الذي يتميز في لوحاته بالليونة والبهجة والجمال واللطف ، وأصبحت المناظر الطبيعية عنده مجرد خلفية بهيجة تحيط بما يرسمه من نساء وأطفال . ولعله بذلك قد انفرد بمنهجه هذا عن باقي أقطاب المدرسة التأثيرية ، التي قامت أساسًا على رسم المناظر الطبيعية الخلوية ، وتعتبر لوحاته التي رسمها

في السبعينات من القرن التاسع عشر وحتى وفاته ، سجلاً حافلاً للحياة الفرنسية ، وشخصيات المجتمع وعاداته وتقاليده وجمالياته .

كان رنوار يعيش من أجل فنه ، يعيش ليرسم ومن هنا لم يترك فرصة لمعرفة أكثر في هذا المجال إلا واستفاد منها واستثمرها ، ومن أجل ذلك سافر إلى إيطاليا لمشاهدة آثار عملاق الفن الإيطالي « رافاييل Raffael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، وتأملها ودرس كل دقائقها ، كذلك قام بزيارات أخرى إلى الجزائر وغيرها ، وتأثر كغيره من الفنانين بسحر الشرق ، بل ونشأ بعد ذلك فن عالمي شهير (في القرن الماضي) أُطلق عليه الفن الشرقي Orientalism كان رنوار من أوائل الفنانين الذين استخدموه ، ورسموا لوحات تحاكيه ، وتبرز جماله وسحره ، كذلك نبغ في هذا الفن كل من « آنجر » و « ديلاكروا » و« جيروم » و« لويس جروز » و« مولر » و« ماتيس » وغيرهم . ومن لوحات رنوار الرائعة والتي تعبر عن تأثره بالشرق لوحة « الطفلة الصغيرة مع الصقر » كانت مثار تعليق وتحليل بين المؤرخين والنقاد والفنانين ، فقد تباري كل منهم في إثبات أو التشكيك في صحة تاريخ رسم اللوحة (١٨٨١ /١٨٨٢)، ومن الطريف أن هذا الخلاف بين النقاد والمؤرخين عاد بالفائدة على تاريخ حياة رنوار وأهميته الفنية ، فقد أضاف هؤلاء إلى المكتبة العالمية أبحاثًا قيمة تناولت بالتفصيل حياة الفنان وزيارته للجزائر وتأثره بسحر الشرق ، أما لوحته التي أثارت كل هذا الجدل « الطفلة الصغيرة مع الصقر » فهي تعبر عن سحر الشرق العربي .

وقد توطدت مكانة رنوار الفنية بعد أن أقام معرضًا شاملاً لأعماله عام ١٨٨٣ ضم سبعين لوحة من روائع إنتاجه ، كذلك استطاع أن يبيع لوحاته بسعر مائة فرنك للوحة الواحدة ، وساعده في ذلك خبير اللوحات الفنية « فوكيه » والناشر « ساربنتين » ، وكان هذا المبلغ مناسبًا جدًا للحياة وقتذاك ، وشجعه ذلك على الاستقلال بفنه والخروج على جماعة التأثيريين بل ومهاجمة فنهم وفلسفتهم الطبيعية .

يقول الأستاذ صبحي الشاروني في كتابه « هؤلاء الفنانون العظماء ولوحاتهم

الرائعة » :

كان في وسع رنوار عندما وصل إلى سن الثانية والأربعين أن يستمر بقية حياته في الرسم على نفس المنوال « التأثيري » الذي حقق له النجاح ، ولكنه ما لبث أن خامره الشك في قيمة هذا الأسلوب الذي يضحي بصلابة الأشكال ويفتتها من أجل اقتناص الضوء الساقط عليها .. فانتقل إلى مرحلة يطلق عليها اسم « المرحلة الجافة » وفيها حاول اتباع تعاليم رائد الفن الكلاسيكي القديم « آنجر » والتي تعطي الأولوية والهيمنة للخطوط بدلاً من الألوان في فن التصوير.. وفي أعمال هذه المرحلة التي امتدت لخمس سنوات ، نجده يعتني أشد العناية بتحديد الأشكال وتجسيمها وتدعيم بنائها ، على غير عهدنا به في لوحاته التأثيرية السابقة ، التي تظهر فيها الأشكال لينة رقيقة وسط غلالة من الألوان الزخرفية الباهتة . ولكنه عاد في عام ١٨٩٠ إلى أسلوب أقرب إلى تأثيريته السابقة ، بعد أن تغيرت ألوانه التي سادها الدفء ، إذ غلب عليها البني والأحمر والبرتقالي ، وتميزت لوحات هذه المرحلة الأخيرة بأن معظمها يصور أجسام النساء وتبدو الألوان وكأنها تتفجر بالأنوثة .

تزوج رنوار بإمرأة واحدة ، وعاش سعيدًا معها يرعى أسرته ، ويروى لنا ابنه المؤلف المسرحي والمخرج السينمائي جان رنوار قصة تعرفه على زوجته ، في كتابه المهم « أبي رنوار » فيقول :

اهتم رنوار في حياته بأن يرسم ، ولم يكترث بشيء ، كانت الفرنكات القليلة التي تصل إلى يديه بين آن وآخر تكفي مطالبه القليلة ، فهو لم يكن يفكر في غده ، إلى أن التقى بالفتاة التي أصبحت زوجته وهي « الين شاريجو » وكانت تعيش مع أمها وحيدتين تكسبان قوتهما بحياكة الثياب وكان أبي في الأربعين من عمره ، بينما كان عمر عروسه وقتئذ ١٩ سنة . وقد أدركت « إلين شاريجو » بسذاجتها الريفية وقلبها البسيط أن أبي « رنوار » قد وُلد ليرسم ، ولذلك كان لزامًا عليه أن يظل يرسم ، سواء كان الرسم جيدًا أو رديئًا .. موفقًا أو فاشلاً .. المهم ألا يكف عن الرسم .

وبعد أن تزوجا ، رأت أمي أنه من الأفضل لهما أن يذهبا للحياة في قريتهما حيث لا يكلفهما العيش شيئًا يذكر ، وهناك يستطيع رنوار أن يكرس كل وقته لتجاربه . إلا أن هذه الفكرة لم تتحقق ، كانت هناك عقبتان : الأولى أن أمها عارضت في أن تربط ابنتها نفسها برجل فقير .. والثانية هي أن رنوار كان يريد البقاء في جو باريس .. قلب المعركة . ومع ذلك تزوجا وعاشا في ستوديو في شارع سان جورج وأقامت معهما جدتي ، مدام شاريجو ، تساعد ابنتها في إدارة شئون البيت ، إذ أن أمي لم تكن في ذلك الحين تتقن طهو الطعام والأعمال المنزلية الأخرى ، إلا أنها أصبحت فيما بعد ربة بيت ممتازة ، وكانت جدتي في بداية الأمر لطيفة مع أبي ، لكنها بعد فترة ، بدأت تلقي تلميحات عن قلة دخله . وكانت أيضا تنتقد بعض تصرفاته كفنان . فمثلاً كان من عادات أبي عندما تخطر له فكرة أن ينهض من مقعده تاركًا مائدة الطعام كي يسجل فكرته بقلم فحم .. فكانت جدتي تقول له عندما يعود إلى مقعده « أهكذا يتصرف الرجل المهذب ؟ »

ولكن ابنتها لم تكن تترك مثل هذه المواقف دون أن تتدخل فيها . فكانت تنظر إلى جدتي نظرة تهديد صارمة وتومىء إلى باب المطبخ . فتقوم السيدة العجوز على الفور وتأخذ معها طعامها لتتم وجبتها وحدها في المطبخ .. ولم يتنبه رنوار إلى مثل هذه الأمور البسيطة . بينما كانت أمي ترضى والدتها فيما بعد بأن تشترى لها بعض الحلوى التي تفضلها .. وروت لي جدتي بعد ذلك أنها أصبحت شيئًا فشيئًا تتقبل أسلوب أبي . فقد بدأت تفهم تدريجيًا طبيعته وأخلاقه .. وهكذا عانى رنوار في بداية زواجه من قسوة معاملة « حماته » .

كان رنوار يأمل ـــ كأي فنان ـــ أن يحتفظ متحف اللوفر بإحدى لوحاته ، كان حلمه الأكبر أن ينال هذا الشرف العظيم ولكن حلمه لم يكن قد تحقق على الرغم من مضى فترة طويلة على احترافه الرسم . إلا أنه وقع حادث غريب أدى إلى تحقيق أمنيته هذه . يروى جان رنوار في كتابه عن والده هذا الحادث فيقول :

كان لرنوار صديق يدعى « جوستاف كايبوت » وهو رجل ثرى كان يهوي الرسم ويأمل أن يصبح رسامًا معروفًا ، انضم إلى جماعة الرسامين التأثيريين ، وأخذ يرسم بحماس شديد ، ولكنه كان يعرف حدود موهبته المتواضعة ، وكان كايبوت يقتني أثمن مجموعة من لوحات أصدقائه ، إذ كان يشتري كثيرًا من أعمالهم .. وكم من رسامين أنقذتهم فرنكاته في أوقات الشدة . ومما يذكر عنه أنه لم يكن كريمًا فحسب ، بل كان بعيد النظر أيضًا . ومات كايبوت عام ١٨٩٤ بعد أن جعل رنوار مشرفًا على تنفيذ وصيته وهي ترك مجموعة لوحاته للحكومة . كان يدرك أنه لن يجرؤ أحد من الموظفين المسئولين على رفض هذه الهبة . وبهذه الطريقة يكسر المعارضة الرسمية للمدرسة التأثيرية ، ويتغلب على الجمود الذي كانت تواجهه . وقام أبي بتنفيذ الوصية ، فذهب أولاً إلى موظف كبير بإدارة الفنون الجميلة ، وكان رجلاً طيبًا ، إلا أنه كان من النوع الذي يتردد طويلاً قبل أن يتخذ قرارًا .. وأخيرًا .. بعد أن أطال التأمل في اللوحات ، قال لأبي : « هذه فكرة شيطانية .. ما الذي جعل صديقك يفكر في وضعنا في هذا الموقف الحرج ؟ ضع نفسك في مكاني ! .. لو أننا قبلنا هذه اللوحات ، سنواجه عاصفة عاتية . ولو رفضناها فسيثور علينا كل الذين يشجعون الموجة الجديدة . أرجوك ألا تسيء فهمي ياسيد رنوار . إننى لا أعارض الإتجاهات الجديدة . فإنني أؤمن بالتقدم . ثم إننى اشتراكي وأنت تفهم معنى هذه الكلمة ..

وهنا طلب منه رنوار أن يترك النظريات جانبًا ، وأن ينظر إلى الأمر بنظرة واقعية . ولم يجد الرجل عندئذ بدًا من اتخاذ قرار .. أي قرار .. فأعاد النظر في اللوحات . وبعد أن استبعد لوحتين أو ثلاث اضطر إلى قبول كل أعمال مونيه وديجا . وأخذ بعض لوحات رنوار .. ولما وقف أمام لوحات سيزان صرخ قائلاً : « لا .. لا تحاول أن تقول لي إن سيزان هذا رسام ! » .

ورفض الموظف قبول ثلثي لوحات هذه المجموعة الفريدة ، وهي من أثمن المجموعات الفنية في العالم ، ثم أرسل اللوحات الباقية إلى متحف لوكسمبورج . وبعد سنوات نُقلت إلى متحف اللوفر وهكذا حقق رنوار هدفًا

من أهدافه في أن يرى إحدى لوحاته في اللوفر ، وهو من الفنانين القلائل الذين تمتعوا بهذا النجاح في حياته .

وفي نشوة هذا النجاح ، وقع لفناننا رنوار حادث خطير ، فقط كان يسير بدراجته في يوم ممطر واختل توازنه فسقط على بعض الأحجار الملقاة في الطريق مما أدى إلى اصابته بكسر في ذراعه اليمنى ، وهي التي يرسم بها ويبدع لوحاته ووضع الطبيب ذراعه في الجبس ونصحه بألا يعود إلى ركوب الدراجة مرة أخرى .

ولم ييأس رنوار فنان الجمال من كسر ذراعه ، على الرغم من كبر سنه ، وبدأ يتدرب على الرسم بيده اليسرى ، وساعدته زوجته في مسح الأجزاء التي كانت لا تعجبه من اللوحة التي يرسمها ، وكانت هذه أول مرة يحتاج فيها لمساعدة أحد ، واستطاع أن يستكمل رحلة الفن ويرسم بذراعه اليسرى ، وعندما أزال الطبيب الجبس عن ذراعه ، كان رنوار قد تعود أن يرسم بيده اليسرى ، وبذلك أصبح يرسم بيديه الاثنتين معًا ، واستفاد من حادث كسر ذراعه .

لم يمهله القدر حتى يتمتع بصحته الكاملة ، بل أصيب بعد ذلك مباشرة بمرض الروماتيزم ، ولم يعد قادرًا على تحريك ذراعه اليمنى ، ولم يستطع الطب في ذلك الوقت أن يعالجه من المرض ، ومرة ثانية لم ييأس رنوار بل استمر في الرسم ، والعجيب أنه لم يكن يرسم ليعيش ، أو لم يكن يحتاج إلى العمل من أجل لقمة العيش ، فقد كان إنتاجه وفيرًا ، وكان الاسقبال على شراء لوحاته شديدًا ، فباع فجأة كل ما كان لديه من لوحات .. وأصبح يتمتع بدخل وثروة تكفيه حتى يعيش وأسرته في رغد من العيش ، ولكن رنوار لم يكن يرسم ليعيش ، بل كان يعيش ليرسم ويبدع ، كان الرسم حياته والابداع هوايته . تذكر معظم المراجع والوثائق أن رنوار كان يرسم في سنواته الأخيرة والفرشاة مربوطة في يده ، ولكن ابنه الكبير جان رنوار يصحح لنا هذه المعلومة في كتابه عن والده فيقول :

« الحقيقة أن جلد أبي أصبح رقيقًا جدًا وحساسًا للغاية إلى درجة أن مجرد احتكاك يده بالفرشاة كان يجرح أصابعه ، ولكي يتغلب على هذه الصعوبة كان يضع قطعة صغيرة من القماش بين أصابعه .. والحقيقة أيضًا هي أن يد رنوار ظلت حتى آخر نسمة في حياته لا تقل ثباتًا عن يد رسام شاب ، كما أن بصره ظل قويًا كما كان ، بل إننا كنا أحيانا نستعمل عدسة مكبرة لكي نتأمل تفاصيل لوحاته .. »

كان رنوار يزداد إقبالاً على الرسم كلما زادت آلامه ، فقد كانت لديه قدرات كثيرة على تحمل الألم ، والعمل المتواصل ، وكان الرسم ينسيه متاعبه وآلامه ويقال ، إنه في إحدى الأيام زاره صديقه الرسام « هنري ماتيس » وجلس معه في أسى وحزن شديدين ، يرقب صديقه العجوز وهو يرسم بأصابعه الضعيفة ، ويتألم لكل حركة يأتي بها ، فسأله :

« لماذا تصر على الاستمرار في الرسم على حساب صحتك ، إنني أراك تتعذب مع كل حركة تأتي بها أصابعك ؟ »

أجاب رنوار :

« حقيقة أنني أتألم ياصديقي ، ولكن الألم لا يلبث أن يزول ، بينما يبقى الجمال حيًا لا يموت أبدا . عزائي الوحيد أنني أشارك في صنع هذا الجمال ! »

انتقل رنوار بسبب مرضه في العشرين سنة الأخيرة من عمره إلى مرحلة فنية جديدة ، تتميز بالعنفوان والقوة ، كرد فعل لمرض الشلل الذي أصابه ، وتحدى المرض وظل يرسم .

هكذا عاش رنوار حياة بسيطة ، عرف المجد ، وعرف الشهرة ، وظل كما كان قبل المجد والشهرة ، رجلاً بسيطًا عاديًا ، عاش حياته من أجل فنه ، من أجل الجمال ، وكانت رسومه المملكة الوحيدة التي يرتاح عند أعتابها ، وينقل من خلالها صور الحياة كما يحلو له أن يتصورها . وهذه الجمالية الفريدة ميزت أعماله ، وكانت مثار جدل ونقد من البعض ومدح من البعض الآخر لدى

مجتمع الفن في باريس . انتقد رنوار الأدباء السوداويين أمثال موباسان وزولا ، اللذان لم يريا في الحياة إلا اللون الأسود والسواد بعامة . والطريف أن موباسان انتقد رنوار لأنه لم ير في الحياة إلا الفرح والألوان الوردية ، وقد تكون هذه العبارة التي قالها موباسان المدخل الأفضل لفهم أعمال رنوار حق الفهم ، فرسوم رنوار تنقل إلى العين عالمًا لا تنازع فيه .. خاليًا من البغض والحسد .. هادئًا صافيًا مثل وجه العذراء .. موضوعاته وجوه الأطفال البريئة .. وباقات الزهور والورود .. والفتيات الجميلات الصغيرات وهن يقطفن الزهور من الحقول .. وحتى حين ابتعد عن هذه الصور إلى موضوعات أكثر جدية ، بدت رسوماته هادئة أيضًا .. ففي لوحة « النساء الغاسلات » مثلا تبدو الصورة فرحة وكأن النسوة لا يعرفن التعب . لا يبدو عليهن أثر الجهد أو إرهاق ، ولا عرق يتصبب من الجبين ، وإنما ظلال وردية ، ومسحات شفافة ، فيها الكثير من السكون والأمل .. وكأن الدنيا بألف خير .. وحين قوبل رنوار بهذا النقد بسبب التحايل على الواقع .. أجاب :

« لا بد أن تظهر الجمال في الحياة ، لأن هناك كثيرًا من البشاعة » . ويعتبر موقف رنوار من المرأة أكثر الموضوعات لغزًا في حياته وأعماله ، لقد رسم كثيرًا من النساء ، وبعضهن كن عاريات وسكب في وجوه بعضهن جمالاً لم يكن عليه ، ولعل ذلك كان من وحي قناعته بأن النساء رمز من رموز الجمال في الحياة ، وفي إحدى رسائله إلى صديق له يقول رنوار :

« أنا أعشق النساء .. كم يبدو الحديث معهن سهلاً ، وتبدو الحياة بسيطة ، وغير معقدة .. إنهن يعطين الأشياء قدرها وقيمتها الحقيقية .. »

كانت آخر موديل رسمها رنوار فتاة في السادسة عشرة من عمرها ممتلئة .. حمراء الشعر .. تدعى أندريه ، تزوجها ابنه جان المخرج السينمائي والمؤلف المسرحي ، وصاحب أصدق كتاب عن حياة رنوار أبيه بعد وفاته .. وكانت أندريه تداعب رنوار وتغني له ، وتروي له قصصًا وطرائف عن طفولتها ، وتدخل السعادة إلى نفسه ، الأمر الذي مكنه أن يترجم إلى لوحاته حب الحياة

وهو ما تجلى في أعماله الأخيرة كلها .

رسم رنوار آخر لوحاته في شتاء ١٩١٩ . كان المرض قد اشتد عليه ، فلم يستطع أن يغادر غرفته ، ولكنه طلب صندوق الألوان ، وفرش الرسم ، ورسم لوحة تبين مجموعة من أزهار الأنيمون ، ونسى آلامه بضع ساعات وهو يرسمها ، وبعد أن انتهى من لوحته طلب من أحد القريبين منه أن يأخذ الفرشاة من بين أصابعه .. ثم أطال التأمل في اللوحة وقال :

« أعتقد أنني بدأت الآن أفهم شيئًا من هذا الفن .. فن الرسم .. »

كانت هذه هي الكلمات الأخيرة لفنان الجمال أوجست رنوار ، الذي رحل في نفس اليوم الذي انتهى فيه من رسم لوحته ، وهو اليوم الثاني من شهر ديسمبر عام ١٩١٩ ، وقال النقاد في فرنسا يومها .. بوفاة رنوار تبدو الدنيا أمامنا ، كما لو كانت الشمس قد غابت عن سمائنا إلى الأبد ، ولكن لوحاته ستبقى دائمًا كنسمات منعشة تنطق بما في الحياة من خير وجمال .

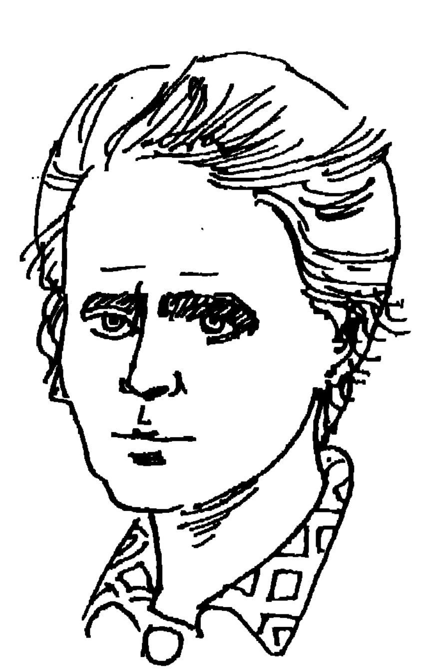
وعندي أن رنوار هو عبقري من العباقرة الذين هزموا اليأس في أكثر من موقع ، فقد ولد فقيرًا واكتشف موهبته مبكرًا ، فعمل حتى يجد لقمة العيش ، وأخذ يدخر من دخله الصغير حتى يلتحق بمدرسة الفنون الجميلة ويدرس الفن دراسة أكاديمية تصقل موهبته ، وكان له ما أراد ، وأخذ طوال حياته الفنية يبرز الجمال في أروع أشكاله ، فالجمال هو هدف الفنان ، والحياة جميلة وحلوة رغم كل شيء ، وعاش رنوار ينشر الجمال بين الناس ، ثم كسرت ذراعه اليمنى فتدرب على الرسم باليسرى ، وأصيب بالروماتيزم ، ولكنه لم يتخل عن فرشاته لحظة واحدة ، وكان يتألم ويتوجع لينشر الجمال في الحياة . وظل يعيش ليرسم حتى آخر لحظة في حياته ، وقد انتهت حياته في نفس اليوم الذي انتهى فيه من رسم أزهار الأنيمون ، وكانت كلماته الأخيرة معبرة عن مدى تواضع هذا الفنان العظيم .



مــارى كــورى

شهيدة العشق الإنساني

(١٨٦٧ ـــ ١٩٣٤)



في إمكان كل إنسان أن يشعر بالسعادة حتى ولو لم يكن معه ما يحتاجه من نقود أو ما يكفيه من طعام ..

« ماری کوری »

هذه السيدة الفاضلة هزمت اليأس والبؤس في عقر دارهما ، فقد هاجمها البؤس منذ طفولتها الصغيرة ، ولكنها لم تيأس ، بل لم تعترف باليأس ، وظلت طوال حياتها تصارع البؤس واليأس والمرض والجوع في صبر أسطورى عجيب .

* لا تقل قصة حياة ماري كورى أهمية عن قصة اكتشافها للراديوم وأهميته للبشر ، فلولا كفاحها وصراعها مع الفقر والمرض والجوع والبرد ، لما استطاعت الوصول إلى اكتشافها العظيم من أجل الإنسان والنبات والحيوان .

* ولدت مارى سكلودوفسكا في مدينة وارسو عاصمة بولندا سنة ١٨٦٧ ، وكانت صغرى بنات مدرس الطبيعة الذي طرده الاستعمار الروسي من بيته وألقاه نهبًا للفقر والشقاء ، أما أمها فكانت ناظرة لإحدى مدارس البنات ، كما كانت فريسة لمرض السل اللعين ، لكنها كانت صابرة متفائلة . وورثت طفلتنا ماري عن أبويها حبهما للقراءة والعلم والثقافة ... كانت بولندا تعاني إبان تلك السنوات من تسلط الاستعمار الروسى الذى أراد أن يلغى الهوية البولندية ، فأصدر قيصر روسيا أوامره بأن تحل اللغة الروسية محل اللغة البولندية ، ومنع تدريس اللغة القومية ، أو تدريس تاريخ بولندا . ولكن البولنديين لم يستجيبوا لهذه الإهانات المتعمدة ، وظلوا يدرسون تاريخ بولندا ولغتها سرًا اعتزازًا منهم بوطنهم ..

كان والد ماري ضحية من ضحايا الاستعمار الذي طرده من بيته إلى الشارع وحرمه من راتبه ، فما كان من الرجل إلا أن يؤجر بعض حجرات بيته الجديد للطلبة حتى يوفر لقمة العيش لأسرته الصغيرة . عاشت الطفلة مارى في هذا المناخ غير الصحي ، طلبة غرباء في البيت يضايقونها بضجيجهم ، ووالد مفلس ، وأم تتألم من المرض ، ومع ذلك كانت متماسكة متفائلة ، أخذت تذاكر دروسها دون اكتراث بالغرباء ، كما كانت تساعد أمها المريضة ، وتحاول إعادة الابتسامة إلى وجه أبيها المتجهم دائمًا .

* وتدور الأيام بطيئة وتفقد ماري أختها « زوسيا » التي أصيبت بمرض

التيفود ، ثم تفقد أمها الحنون التي طحنها السل ، كل هذا وطفلتنا ما زالت في العاشرة من عمرها ، وتحاول « برونيا » الشقيقة الكبرى لماري أن تعوض الأسرة عن حنان الأم ، لكن هيهات .

* لم تكن ماري بالشخصية العادية التي تعيش كما أي إنسان بل كانت لها فلسفة في الحياة ، فهي طموحة للغاية محبة للعلم والعلماء ، مقبلة على القراءة ، تكاد تلتهم الكتب التي بين يديها . كانت عندما تقرأ تستغرق استغراقًا كاملاً فيما تقرأه ، فلا تشعر بمن حولها ، ولا تعبأ بضجيج الآخرين مهما كان هذا الضجيج . كذلك كانت على قدر كبير من الذكاء ، وكانت تحفظ عشرات الأبيات من الشعر وتلقيها بسهولة وعذوبة رائعة . لم يمنعها حبها للعلم والشعر والحياة الجادة من أن تتعلم عدة رقصات شعبية بولندية ، ومجموعة من لعبات الذكاء ، فإذا أضفنا إلى ذلك ذوقها الرفيع وأخلاقها الكريمة استطعنا أن نقترب من شخصيتها الساحرة .

* اضطرت مارى أن تعمل بالتدريس حتى تساعد والدها في مواجهة أعباء الحياة ، وبعد أن انتهت مرحلة التعليم المدرسي تطلعت إلى مواصلة تعليمها في الجامعة العائمة ، والجامعة العائمة هذه كانت على شكل تنظيم سري ، تتكون من فريق كبير من شباب بولندا وشاباتها الوطنيين الذين يرغبون في مواصلة التعليم العالي بعد انتهاء التعليم المدرسي . كان هؤلاء الشباب يلتقون سرًا ، وفي أماكن وأوقات مختلفة ، للاستماع إلى المحاضرات التي يلقيها عليهم الأساتذة المتخصصون ، وكانت مثل هذه الاجتماعات محرمة تحريمًا قاطعًا بأوامر السلطات الروسية المحتلة ، أما من يضبط من هؤلاء فمصيره السجن سواء كان طالبًا أو أستاذًا ، كان من أنبل أهداف هذه الجامعة العائمة أن يحاول الطلبة الذين يدرسون فيها ضم عدد آخر من زملائهم ، كي يقدموا لهم المعرفة والخبرة حتى يستطيع الجميع خدمة وطنهم بولندا .

كانت ماري تتطلع إلى حضور محاضرات الجامعة العائمة ، وهي الشغوفة بالعلم والمتعطشة للتعليم ، ولكنها كانت تحب شقيقتها الكبرى (برونيا)

وتعرف طموحها في أن تدرس الطب في باريس ، ولم تجد بدًا من أن تعمل هي مربية في أحد بيوت الأغنياء حتى تحقق طموح شقيقتها الكبرى في الدراسة بباريس ، ولم توافق الأخت الكبرى في البداية ، لكن مارى أقنعتها بأنها الكبرى وأنها بلغت العشرين من العمر ، في حين أنا مارى ما زالت في السابعة عشرة من عمرها ، وقالت ماري لشقيقتها إنها ستعمل مربية لترسل لها نقودًا بين الحين والحين تساعدها على العيش والدراسة في باريس .

وافقت برونيا على خطة شقيقتها الصغرى ماري على أن يكون دور مارى بعد ذلك في الدراسة في باريس بعد أن تنتهي برونيا من دراستها وتساعدها في ذلك .

* افترقت الشقيقتان ، سافرت برونيا إلى باريس لتبدأ في تحقيق طموحها في دراسة الطب ١٨٨٥ ، وفي نفس الوقت تقدمت ماري إلى أحد مكاتب التوظيف بحثًا عن وظيفة مربية أطفال ، وما هي إلا أشهر قليلة وكان المكتب قد وجد لها عملاً في إحدى البيوت الكبيرة في منطقة ريفية تبعد عن وارسو بحوالي ستين ميلاً .

أحبت ماري عملها الجديد كمربية لطفلة تبلغ من العمر عشر سنوات ، وكانت سعيدة في هذا البيت الريفي الهادىء ولم تنس هوايتها في القراءة على الرغم من مشاغل عملها ، بل إنها خصصت ساعتين كل يوم لتعليم مجموعة من الصبيان والبنات الفقراء من أبناء تلك المنطقة الريفية مبادىء قراءة وكتابة اللغة البولندية . كانت تفعل هذا بروح وطنية عالية ، وهي تعلم أن الشرطة لو علمت بهذا فسيكون مصيرها السجن والنفي .

جذبت شخصية ماري القوية الجميلة ، الوطنية المتفائلة ، الابن الأكبر للأسرة التي كانت تعمل في بيتها ، ووجد فيها ذكاء وذوقًا وأخلاقًا موفورة ، ونادرًا ما تتمتع فتاة بكل هذه الصفات . اقترب منها وأحبها وبالدته الحب ووجد فيها فتاة أحلامه . أراد أن يتزوجها ، ولكنه فوجيء بغضب الأب وحزن الأم ، إذ كيف يتزوج فتاة فقيرة مثل ماري اضطرت إلى العمل كمربية أطفال

حتى تستطيع العيش ؟

استجاب الابن صاحب الشخصية الضعيفة لرأي والديه ، وانصرف عن حب ماري ، بعد أن ترك جرحًا عميقًا في مشاعرها ، لكنها استطاعت أن تعبر الأزمة وتواصل عملها بجد ونشاط حتى تتمكن من إرسال نصف أجرها الشهرى إلى أختها برونيا ، التي تدرس في باريس كما كانت تساعد الأسرة على العيش الكريم . استمرت في عملها هذا ثلاث سنوات حتى أرسلت لها شقيقتها من باريس تعرفها بأنها تزوجت ، ولا تحتاج إلى المال ، بل وتدعوها إلى الحضور إلى باريس كما وعدتها لكي تكمل دراستها ، وفي نفس الوقت كان والدها قد غير مهنته والتحق بعمل أفضل يدر عليه دخلاً أكبر و لم يعد بحاجة إلى المساعدة .

* بدأت الحياة تبتسم لماري وقررت السفر إلى باريس لتحقق الحلم الذي كان يراودها منذ طفولتها في دراسة العلوم في كلية السوربون ، وفي خريف عام ١٨٩١ بدأت الرحلة التي ستغير حياتها تمامًا وستفتح أمامها أبواب العلم والمال والشهرة .

* لم تكن ماري قد ادخرت مالاً كثيرًا يساعدها في مستقبل حياتها ، إذ كانت ترسل معظم راتبها إلى أختها ووالدها ومن هنا كان المال شحيحًا في يدها في بداية رحلتها إلى باريس مما دفعها إلى ركوب عربة صغيرة مكشوفة صندوقية الشكل ، ملحقة بآخر عربات القطار ، وهي عربة بضاعة ، إذ لم يكن معها حتى ثمن تذكرة الدرجة الثالثة ، وظلت ثلاثة أيام في هذه العربة . وهي مدة الرحلة من وارسو إلى باريس . عانت ماري بالطبع من البرد والجوع والتعب ولكنها كانت سعيدة بأنها ستذهب إلى باريس لتحقق حلم حياتها .

* في باريس عاشت ماري سكلودوفسكا Maria Sklodivska في بيت شقيقتها برونيا بعضًا من الوقت ، لكنها ضاقت ببيت شقيقتها لسببين : الأول كثرة الزوار الذين يسرقون الوقت ويشغلون البال ، والثاني بعد البيت عن الجامعة . وقررت استئجار حجرة صغيرة بجوار الجامعة . بالفعل وجدت الحجرة

المتواضعة التي تتفق مع نقودها القليلة . كانت هذه الحجرة على سطح بيت قديم ، لا يوجد بها إلا سرير صغير ، ومقعد واحد ، ومنضدة متهالكة ، وموقد صغير للطبخ ، ومصباح صغير يضاء بالزيت . لم تكن ماري تطمع في أكثر من ذلك فقد جاءت إلى باريس لتدرس وتتعلم . كان دخلها الشهري ما يساوي ثلاث جنيهات ونصف جنيه ، ومن هنا كان اهتمامها الأول بتسديد إيجار الحجرة ، وشراء كل ما تحتاجه من الكتب ودفع مصاريف الدراسة ، وما يتبقى بعد ذلك — وهو قليل — للطعام والشراب ، كانت تأكل الخبز الأسود وعروق الفجل ، وتشرب بعض أكواب الشاي ، بل كانت إذا أسرفت جدًا تشتري لنفسها بيضة أو بيضتين . لم يكن الطعام يهمها ، وكانت تنسى الجوع والعطش وهي مستغرقة تمامًا في قراءة الكتب ودراسة الأبحاث ، ولم تعد أطماعها في الحصول على أجازة السوربون وحسب بل تجاوزتها إلى الحصول على ليسانس في العلوم الرياضية . كانت تعمل ليلاً ونهارًا ، تسهر حتى الثالثة صباحًا ثم تنام حوالي أربع ساعات تنهض بعدها لتسرع إلى الجامعة ، وفي غمرة حبها للدراسة والبحث نسيت طعامها وشرابها وملابسها . كانت تأكل ما تجده أمامها أو لا تأكل شيئًا ، وترتدي الملابس المتواضعة التي جاءت بها من بولندا . وفوق هذا كانت تتحمل البرد القارس ، برد باريس . فعندما تتجه إلى السرير ترتدي كل ملابسها المتواضعة ، وعندما كان البرد يتسلل إلى جسمها النحيف والضعيف كانت تأتي بالمقعد الوحيد في الحجرة لتضعه فوقها حتى يحميها من البرد . ظلت هكذا تعمل وتعمل من أجل دراستها العلمية ، حتى جاء يوم انهارت تمامًا من شدة الجوع والبرد والضعف ، وأسرع زوج أختها الطبيب فنقلها إلى بيته حيث اهتمت شقيقتها برونيا بها صحيًا ، وقدمت لها الطعام اللازم الذي حُرمت منه . وبعد أن اشتد عودها عادت إلى حجرتها بجوار الجامعة حتى لا تفقد الوقت والحماسة للدراسة ، وكان من الطبيعي أن تنجح في الامتحان وتصبح الأولى على الجميع .

* كلفت مارى من قبل إحدى الجمعيات العلمية البولندية بالبحث عن مغناطيسية المعادن الصلبة ، وتوسط البعض لدى العالم الفرنسى بيير كورى

Pierre Curie ليجد لها مكانًا في معمله بالجامعة لإجراء تجاربها ، ولم يمانع بل رحب بها في معمله .

* كانت ماري قد كرست حياتها للعلم والبحث والدراسة ، حتى أنها نسيت حياتها وطعامها وشرابها ، وكذلك نسيت الحب وبخاصة بعد تجربتها القاسية والفاشلة مع ابن صاحب المزرعة التي كانت تعمل مربية أطفال بها . كذلك كان العالم الفرنسي بيير كوري يهتم بأبحاثه ودراسته دون أن يفكر في الزواج ، فقد اعتقد أن المرأة أتفه من أن تشغل قلبه ووجدانه وتعطله عن العمل .. وبدأ بيير يلتقي مع ماري في المعمل لإجراء تجاربهما ، وفي وقت الفراغ كان كل منهما يحكي للآخر عن طموحه وآماله ، وبدأ بيير يهتم بماري الفتاة البولندية الوطنية الثائرة ، المُحبة لعملها ، الطموحة الذكية ، وجد فيها الصفات التي لم يكن يتوقعها في المرأة فأحبها ، وعن طريقها احترم حواء في كل مكان . أما بالنسبة لماري ، فقد استطاع بيير بشخصيته الجذابة وحبه لعمله ، وطموحه أن ينسيها تجربتها الأولى الفاشلة ، وأن يفتح قلبها للحب ، واعترف الاثنان لبعضهما بالحب ، ووجدا في الزواج تتويجًا لحبهما الجارف ، وبداية للمستقبل الزاهر .

* في عام ١٨٩٥ تزوج بيير وماري ، وأصبح اسمها بعد ذلك ماري كوري Maria Curie ، وقضى العروسان شهر العسل خارج باريس ، حيث الريف الجميل ، الغابة الجميلة والحقول المزروعة . وكانت مناقشاتهما الدائمة تدور حول العلوم ، والتجارب المعملية ، وكيف يمكن لهما خدمة العلم ؟ وكذلك عن حلمهما بإقامة معمل خاص بهما .

* ويقال إن ماري نسيت نفسها كالعادة يوم الزفاف ، واستغرقت في القراءة والتجارب العلمية ، ونسيت موعد زفافها ، وعندما ذكروها به قالت :

« أنا واثقة أن بيير سوف يغفر لي ، عندما يعلم أنني قد وضعت يدي على أول الخيط .. »

عاد الزوجان السعيدان بعد أيام العسل القليلة إلى بيتهما الجديد البسيط ،

الذي لا يحوى شيئًا ثمينًا إلا الكتب . كانا يقضيان في المعمل نحو ثماني ساعات يوميًا ، ثم يعودان إلى البيت لاستئناف العمل والدراسة ، فيجلسان إلى طرفي المنضدة وبينهما مصباح يعمل بالزيت ، ويظل الاثنان يقرآن حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل ، ولم يشعر أحدهما بالتعب والإرهاق ، بل كان كل منهما يشجع الآخر على المزيد من القراءة والبحث .

لا شك أن الزواج أضاف أعباء جديدة على ماري كوري ، ومسئوليات لم تكن لتهتم بها . أصبحت الآن مسئولة عن بيتها ونظافته وإعداد الطعام ، ثم رزقت بطفلة أسمتها ايرين Irene مما زاد من مسئولياتها ، ومع ذلك كانت تنظم وقتها بين البيت والمعمل ونجحت في ذلك . والطريف أن ابنتها ايرين هذه أصبحت فيما بعد عالمة عظيمة ونالت جائزة نوبل عام ١٩٣٥ .

كانت ماري تحضر لرسالة الدكتوراه في موضوع طرقه قبلها العالم « هنري بكرل » عن الإشعاع الذاتي لبعض المعادن ، ولكنه لم يتمكن من تعليل سر هذا الإشعاع من معدن اليورانيوم . أما هي فقد افترضت وجود عنصر جديد هو مصدر الإشعاع ، مخالفة بذلك القواعد العلمية المتفق عليها . اقترحت أن يسمى هذا العنصر بالراديوم Radium وكان عليها أن تكافح لتثبت صحة فرضها ، وحقيقة العنصر الذي تنبأت بوجوده . وظلت تجرى التجارب ، تنجح مرة وتفشل مرات . كان الفشل يشجعها على العمل أكثر بحثًا عن الكشف الموعود .. وترك بيير كوري زوجها جميع أبحاثه وتجاربه المعملية وانضم إليها يساعدها في البحث عن ذلك الإشعاع المجهول . لم يكن الطريق سهلاً أو ممهدًا ، بل كان على الزوجين أن يقضيا سنوات طويلة في البحث العلمي حتى يتمكنا من تحضير هذا الراديوم ، ويثبتا صحة نظريتهما الجديدة .

بحث بيير كوري عن مكان يصلح إعداده معملاً خاصًا لهما ، وهو الحلم الذي كان يراودهما دائمًا ، بأن يكون لهما معملاً خاصًا . ووجدا مكانًا صغيرًا خلف المدرسة التي كان يعمل بها ، وعلى الرغم من أن المبنى كان متهالكًا أشبه بكوخ قديم ، لا يستخدمه أحد ، فإن بيير أعده ليكون معملاً يجرى فيه تجاربه

مع زوجته بحرية كاملة .

كان الزوجان يعملان في هذا المعمل طوال النهار وجزءًا كبيرًا من الليل . يستعملان الميزان الدقيق في وزن بعض المواد ... ويقلبان « أطنانًا هائلة من نفايات صخور البتشيلند الغنية بأملاح اليورانيوم .. ويقومان بإذابة بعض المواد.. ثم يجريان الكثير من الحسابات والمعادلات .. ويعيدان هذه الكرّة مرات ومرات .. وظلا هكذا مدة أربع سنوات مضنية ، تحملا فيها الكثير من المتاعب وبخاصة المعمل المتواضع المتهالك ، شديد الحرارة صيفًا والبرودة شتاء ، والذي كانت تتساقط من سقفه المياه كلما أمطرت السماء .

* في مساء أحد الأيام عام ١٩٠٢ ، بينما كان الزوجان جالسين في البيت ، طلبت ماري من زوجها الذهاب إلى المعمل ، ولم يمانع الزوج على الرغم من أن الساعة كانت التاسعة مساء . عندما وصلا إلى هناك وفتح باب المعمل ، اقترحت ماري عدم إضاءة المصباح وقالت لزوجها .. أنظر ماذا ترى .. ؟

كان هناك عنصرًا مضيئًا يشع من أنابيب الاختبار الموضوعة على بعض المناضد .. إنه السر الذي يبحث عنه الزوجان العالمان منذ سنوات طويلة .

* إنه الراديوم Radium .

ويصدر إشعاع الراديوم هذا من معدن اليورانيوم وهو خطير يفتك بكل ما يحيط به من أشياء فيتركها حطامًا ، ولكنه مفيد في علاج أمراض السرطان الخبيثة .

* طيرت وكالات الأنباء خبر اكتشاف ، الراديوم ، واهتمت الصحف في العالم كله بالتعليق عليه . أجريت التحقيقات الصحفية مع ماري كوري وزوجها ، وأصبحا في يوم وليلة حديث الناس وفخر المجتمعات ، وطبقت شهرتهما الآفاق ، بل إنهما ضاقا ذرعًا بهذه الشهرة التي تعطلهما عن حياتهما العملية ، فقد انهالت عليهما الدعوات لحضور المآدب الكبيرة والاجتماعات المهمة ، وإلقاء المحاضرات ، وكتابة المقالات في الصحف والمجلات .. هذا

بالإضافة لزيارات الصحفيين المتكررة لهما في البيت ، والتقاط الصور ا
في البيت ، وأسئلتهم الكثيرة .. كان الزوجان يودان الهروب من هذ
أو من الصحفيين ولكن كيف ؟ .. حتى أثناء سيرهما في الشارع يتة
الناس بأسئلتهم الكثيرة ، سأل أحد المارة ماري كوري .. ألست أ
كوري ؟ أجابت بكل ثقة .. لا .. بكل أسف .

ولا شك أن الشهرة شيء محبب إلى النفس ، ولكنها أحيانًا تجلـ
والمشاكل لصاحبها ، وبخاصة من العامة .

تلقت مدام كوري وزوجها دعوة للسفر إلى انجلترا لمقابلة بعض
ومناقشة اكتشافهما ، وكيف يمكن الاستفادة منه ؟.. وهناك ألقى بيه
محاضرة علمية حضرها حشد كبير من العلماء . بعدها أقيمت للعالم
ضخمة حضرها كثير من العلماءِ والشخصيات المرموقة في المجتمع ا
مع زوجاتهم ، ارتدت السيدات في هذا الحفل أفخر الثياب ، وتحل
أنواع الحلي والمجوهرات ، ونظر الزوجان إلى هذه المجوهرات بإعجاب و
وعندما انفردا بعد حفل العشاء .. قالت ماري لزوجها .. لم أكن أتـ
توجد مثل هذه المجوهرات في العالم .. ثم قال بيير كوري :

لقد أعجبت كثيرًا بهذه المجوهرات .. ثم سألت نفسي عن ثمنها
وتخيلت لو أن هذه الأموال الطائلة انفقت على إقامة المعامل العلمية لخد
والإنسانية ، ألم يكن ذلك أفضل ؟

* كان من الطبيعي أن يفوز الزوجان بجائزة نوبل في علم الطبيعة ، و
أن يستفيدا من المال في العيش الكريم والتفرغ تمامًا للبحث العلمي .. و
دعوة للسفر إلى أمريكا لمناقشة إنتاج الراديوم بكميات كبيرة ، ووعد
جهدهما في هذا المجال ماديًا . وتحدث بيير إلى زوجته بخصوص هذه ا
وقال لها إن المال الذي سيأتي من إنتاج الراديوم في أمريكا ، سيوفر لهـ
سعيدة هنيئة بعد تقشف السنوات الماضية ، والمعاناة من الجوع والبرد و
وسينفع المال من أجل الأبناء ، وإنشاء معمل علمي كبير مجهز بأحدث

والمعدات .

* نظرت مدام كورى إلى زوجها بدهشة وتعجب وتركته يكمل حديثه إلى النهاية ، ثم قالت في حزم وجدية :

إن واجب العلماء أن يعطوا اكتشافاتهم للعالم .. حتى ولو كانت أسرار هذه الاكتشافات تساوي الملايين .. إننا لا يمكن أن نبيع أو نتاجر في سر اكتشافنا .. إن ذلك سيكون ضد الروح العلمية .

بهت بيير كورى من كلام زوجته ، وصمت برهة من الوقت ثم ردد كلمات زوجته .. إن هذا سيكون ضد الروح العلمية .. واقتنع برأي زوجته في تقديم العلم والاكتشافات مجانًا لكل الناس حبًا في الإنسانية .

لم تكن مدام كوري تهتم بالشهرة أو المال أو بريق الذهب والمجوهرات ، بل كان اهتمامها بعملها ، وكيف يمكن أن تخدم العلم والناس ؟ .. سألها أحد الصحفيين مرة عن نفسها وأفكارها ومعتقداتها ، فأجابت :

إن العلماء يهتمون بالأمور والشئون العلمية ، ولا يهتمون بأشخاصهم .. وفي إحدى الحفلات الكبيرة تقدم منها من يسألها عما إذا كانت تود مقابلة ملك اليونان الذي كان من شخصيات الحفل فأجابت ببساطة :

لا أعتقد أن هناك سبب يدعوني لمقابلة الملك ..!

* واصل الزوجان العالمان أبحاثهما العلمية ، وبخاصة بعد أن أصبحت حياتهما أكثر سعادة وخالية من المشاكل ، وكرسا وقتهما للعلم ولحياتهما الخاصة .. ورزقا بعد ذلك بطفلة ثانية أسمياها إيف Eve ومعناها حواء ، واستطاعت مدام كوري أن تلعب دور الأم وربة البيت بثقة وجدارة وكذلك دور العالمة الباحثة في المعمل ، ونظمت وقتها ونجحت في كل ما فعلت .. كما استطاع بيير كورى العالِم المعروف وقتذاك أن يكون زوجًا وأبًا سعيدًا ، وطلبت منه الجامعة الفرنسية أن يقوم بتدريس مادة العلوم والطبيعة لطلبتها فلم يبخل بعلمه على طلبة الجامعة ، بجانب أبحاثه الخاصة في المعمل مع زوجته .

وفي أوج هذه السعادة الزوجية والعلمية فقدت مدام كوري زوجها فجأة في حادث عربة سريعة ، فبينما كان بيير كورى يسير في أحد شوارع باريس المزدحمة بالناس يوم الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦ ، بعد أن ألقى محاضراته في كلية العلوم ، إذ به ينزلق بسبب مياه المطر وزحام الذروة ، ويقع على الأرض لتدوسه عجلات إحدى عربات الخيل الثقيلة المسرعة ، فمات في الحال .

كان موت بيير صدمة قاسية لزوجته الحانية المحبة ، وحزنت كثيرًا ، لكنها استطاعت أن تتماسك ، ورأت أن مواصلة عملها وأبحاثها خير وسيلة لتخليد زوجها .. وفي خريف نفس العام أصدرت الجامعة الفرنسية قرارًا بتعيينها في نفس الوظيفة التي كان يشغلها زوجها ، وهي وظيفة أستاذ في كلية العلوم ، وذهبت إلى الكلية ، وفي نفس المدرج الذي كان زوجها يلقي فيه محاضراته ، وقفت وبكل شجاعة ألقت محاضرتها من نفس النقطة التي توقف عندها زوجها قبل الرحيل ، وانهمرت دموع الطلبة والطالبات وازداد إعجابهم بهذه السيدة العظيمة المتمكنة من علمها .

* في عام ١٩١١ مُنحت الدكتورة ماري كورى جائزة نوبل للمرة الثانية ، وفي عام ١٩١٤ تم إنشاء المعهد العلمي الفرنسي الذي سيساعدها كثيرًا على إجراء تجاربها وأبحاثها العلمية الجديدة ، إلا أن هذا العام نفسه شهد حدثًا خطيرًا هدد البشرية كلها بالفناء وهو اشتعال الحرب العالمية الأولى ، وأصبحت فرنسا مهددة بالخطر الحقيقي ، وحين اقترب هذا الخطر من مشارف باريس العاصمة ، قامت الدكتورة ماري كوري بنقل كمية الراديوم التي تمتلكها في معملها إلى مكان آمن خارج باريس ، وعادت بعد ذلك لتواصل جهودها في علاج مئات الآلاف من الجرحى والمصابين بسبب المعارك الحربية ، وكانت تُشاهد في قلب باريس وهي تقود سيارات الإسعاف بنفسها .

* ظلت الدكتورة ماري كوري تعمل في البيت والمعمل دون توقف أو كلل ، ولم تكترث بسنوات عمرها التي ناهزت الخمسين ، بل لم تهتم بصحتها التي كانت تزداد مع الأيام ضعفًا وسوءًا .. وجاءتها صديقة معجبة من أمريكا

وشرحت لها مدى إعجاب الأمريكيات بها وبشخصيتها وبنجاحها الذي شرف المرأة في كل مكان ، وأبحاثها التي تخدم الإنسانية ثم تطرق الحديث عن مادة الراديوم فقالت مدام كوري :

كل كميات الراديوم الموجودة في أمريكا لا تزيد عن خمسين جرامًا فقط .

وسألتها صديقتها الأمريكية السيدة ملوني :

وما هي الكمية الموجودة في فرنسا ؟

أجابت الدكتورة ماري كوري :

في معملي يوجد جرام واحد من الراديوم ، وهو ليس ملكًا لي بل ملك للمعمل الذي أعمل فيه .

ثم سألتها مدام ملوني :

لو وضع كل ما في العالم من الراديوم تحت طلبك فماذا تختارين منه ..؟

أجابت العالمة كوري بلا تردد :

أنا لا أحتاج أكثر من جرام واحد من الراديوم حتى أتمكن من توسيع دائرة تجاربي وأبحاثي العملية .. ولكني لا أستطيع شراء هذا الجرام لأنه باهظ الثمن .!

* وتركت الصديقة الأمريكية العالمة ماري كوري وهي في حالة من الدهشة كيف أن العالمة التي اكتشفت هذه المادة وأهميتها للإنسان والحيوان والنبات لا تملك جرامًا واحدًا منها حتى تكمل به أبحاثها ودراساتها من أجل البشرية ؟ وعادت إلى أمريكا وهي تعد مشروعًا لجمع التبرعات من الهيئات العلمية والأغنياء والمؤسسات حتى تشتري الجرام الذي تحتاجه ماري كوري ، واستطاعت أن تنجح في مهمتها خلال عام ، ثم قدمت دعوة إلى العالمة ماري كوري لكي تزور أمريكا ، وتتسلم جرام الراديوم هدية من الشعب الأمريكي.. واستجابت ماري كوري للدعوة وقبلتها وأبحرت إلى أمريكا مصطحبة معها

ابنتيها « ايرين » و« إيف » حتى يساعداها في الرحلة . فقد كانت في الرابعة والخمسين من عمرها ، وكان الضعف العام يتسلل إلى جسدها النحيل .. وفي أمريكا لم تستطع تلبية كل الدعوات لإلقاء المحاضرات ، وزيارة المعامل ، وحضور حفلات التكريم بل كانت تنيب ابنتيها بدلاً منها ، وكان أهم الاحتفالات التي أُقيمت لتكريمها تلك الحفلة العظيمة التي أقيمت في واشنطن والتي تولى فيها الرئيس الأمريكي إهداءها هدية الراديوم بنفسه باسم الشعب الأمريكي كله .. وكانت مفاجأة الحفل أن العالمة ماري كوري ، قامت بإهداء الراديوم قبل أن تتسلمه .. فقد علمت في اليوم السابق على الحفل أن الراديوم الذي سيُهدى إليها سيكون ملكًا لها ، وأن وثيقة الملكية قد كتبت على هذا الأساس ، فاعترضت وطلبت تغيير الوثيقة ليصبح هذا الراديوم للعلم ولمعملها الذي سيخصصه لمزيد من التجارب والأبحاث العلمية ، وكان لها ما أرادت فتغيرت الوثيقة قبل الحفل فعلاً ، وكان تعليلها رفض الإهداء إليها بأنه معنى ذلك أن يكون إرثًا لابنتيها إذا ما توفيت ولا يعرف الإنسان متى يرحل ، فماذا يكون الوضع لو رحلت والراديوم باسمها ؟

إنها تريده للعلم والعلماء وللإنسانية جمعاء ..

عادت ماري كوري إلى فرنسا وعاشت سنواتها الأخيرة تعمل بنفس الجهد والنشاط في معملها وفي بيتها ، وزارت وطنها الأول بولندا وأقاربها هناك ، ولكن صحتها كانت تزداد ضعفًا وسوءًا مع الأيام ، وحار الأطباء في معرفة مرضها ، وفي الرابع من شهر يوليو عام ١٩٣٤ رحلت العالمة الدكتورة ماري كوري عن عالمنا .. واكتشف الأُطباء سبب مرضها وموتها وهو كثرة تعرضها للنشاط الإشعاعي الذي كان يصدر عن الراديوم ، والذي عاشت طوال حياتها تبحث عنه ، وتجري التجارب عليه ، وهو سبب شهرتها ونجاحها ، ولكنه في نفس الوقت كان يدمر خلايا جسمها .

*إن قصة حياة ماري كورى ما هي إلا ملحمة من الكفاح ضد الفقر والجوع والجهل والطمع ، إنها رسولة العلم الذي يهدف إلى منفعة الإنسان دون انتظار

ربح مادي .. لقد اكتشفت الراديوم الذي استخدم في علاج بعض الأمراض الخطيرة .. وفي تحسين تنمية النباتات والحيوانات ، وبفضل جهودها تيسرت سبل البحث العلمي لدراسة الفضاء فيما وراء الشمس والنجوم ، ولدراسة قياس أعمار بعض المخلفات أو الأشياء التي كانت موجودة منذ ملايين السنين.. حتى العلوم الذرية كانت نتيجة مبدئية للتجارب التي أجراها الزوجان كورى .

وعندي أن ماري كورى قد هزمت اليأس عندما حاربت الفقر في بداية حياتها وعملت وتعلمت ، وكان يمكن أن تستسلم لوضعها الإجتماعي وتصبح إمرأة عادية ، لكنها كافحت حتى وصلت إلى باريس ، وفي باريس عانت أكثر وأكثر من الجوع والفقر والبرد ، ولكنها تحملت حتى انتهت من دراستها ، ثم عاشت بعد ذلك مع زوجها تجري الأبحاث ووهبت حياتها للعلم ، وعندما جاءتها الشهرة العريضة بعد اكتشافها للراديوم لم تسعد بها بل كانت تنكر نفسها عن الناس ، ولم يبهرها بريق الذهب والمجوهرات ، وأبت أن تأخذ مع زوجها ثمنًا لاكتشافها الراديوم ، بل قدمته هدية للإنسان في كل مكان ، حتى يحقق له الشفاء والأمان ، وقبلت هدية الشعب الأمريكي لها ، وهي جرام الراديوم لكنها رفضت أن يكون ملك لها ، بل للعلم والعلماء . لقد هزمت ماري كوري اليأس من ضعف الإنسان أمام المادة ، سواء المجوهرات أو المال الوفير ، وعاشت من أجل العلم وحب الإنسان ، والبحث عن سعادته ، وماتت شهيدة لاكتشافها الذي أفاد الناس والعلم ، وفي نفس الوقت دمر جسدها وقتلها .



لويس بريل

يضيء الطريق

(١٨٠٩ ـ ١٨٥٢)



لقد تأكدت أن حياتي لم تذهب هباء .

« بريل »

لم يعد كف البصر عاهة جسمية تخيف صاحبها ، أو تمنعه عن تلقي العلم والثقافة ، وقراءة الصحف والمجلات والكتب والمراجع . بل أصبح المكفوف كالمبصر ، يتلقى العلم ويحصل على أعلى الشهادات والدرجات العلمية كالماجستير والدكتوراه . أصبح بمقدوره أن يعرف ما يحدث في عالمه ، سواء في بلده أو في بلاد الدنيا الواسعة . كل ما في الأمر أنه يقرأ بأصابعه بدلاً من عينيه .. والمكفوفون في كل العالم ، والذين يبلغ عددهم حوالى عشرين مليون نسمة ، يذكرون جيدًا هذا الانسان الذي أضاء لهم الطريق ، طريق المعرفة والثقافة ، عن طريق اختراع كتابة خاصة بهم ، وهو الفرنسي لويس برايل Louis Braille . فما هي حكاية بريل .. وكيف اكتشف طريقته الخاصة للكتابة للمكفوفين ؟

* ولد لويس بريل سنة ١٨٠٩ في قرية كفراي Coupvray التي تبعد عن باريس عاصمة فرنسا بأربعين ميلاً .. وكان الطفل يتمتع بعينين جميلتين حتى أن نساء القرية كن يتهامسن كلما مر أمامهن قائلات .. ياالله .. ما أجمل عينيه السوداوين الواسعتين .. أما والد الطفل فكان يعمل « سروجيًا » أي صناعة كسوة الخيل ، وكأي طفل كان أبوه يصطحبه معه أحيانًا إلى حانوته ليجلس معه . وكان الطفل لويس على درجة كبيرة من الذكاء فكان يتتبع والده أثناء عمله ليعرف ماذا يعمل . وفي إحدى المرات بينما كان والده مشغولاً بعمله حاول أن يقلده فأمسك بإبرة « مخراز » طويلة ، ومطرقة خشبية ، وقطعة من الجلد ، وأخذ يهوى بالمطرقة على الإبرة الموضوعة فوق قطعة الجلد اللامع ، ليصنع منها شيئًا ، كما يفعل والده ، وإذا بالمخراز يفلت من يديه ويجرح عينيه جرحًا أليمًا . سقط لويس على الأرض وهو يصرخ ويتلوى من شدة الألم ، وانتشرت الجراثيم في الجرح ، فالتهبت أعصاب العين وفقدت بصرها . امتدت العدوى إلى عينه الأخرى السليمة ، وما هي إلا أيام قليلة حتى فقد طفلنا لويس بريل البصر تمامًا ، وهو ما زال يحبو في السنة الثالثة من عمره .

وهناك قصة أخرى عن فقد بريل للبصر تقول إنه كان يحب الموسيقى ويعشقها ، وحدث وهو في العاشرة من عمره ، أي سنة ١٨١٩ أن سمع وهو

في بيته إحدى فرق الجيش تعزف لحنًا على الآلات النحاسية ، أعجبه اللحن فاندفع مهرولاً إلى الشرفة ليشاهد تلك الفرقة الموسيقية فاختل توازنه وسقط من الشرفة ، وأصيب العصب البصري نتيجة ذلك ، فأصبح كفيفًا .. هذه القصة يرويها لنا محمد كامل حسن المحامي في كتابه عن « هيلين كيلر » ضمن سلسلة « عباقرة خالدون ». لكن معظم المراجع والموسوعات تذكر الحكاية الأولى لإصابته بفقد البصر في حانوت والده وهو يحاول تقليده .. مما يؤكد صحتها تاريخيًا .

* ولأنه لا يستطيع أن يركن إلى الراحة وهو في هذه السن الصغيرة ، كان لويس بريل يقضي أوقاته إما تحت ظل شجرة ، حيث يستطيع الاستماع إلى أصدقائه ، ومتابعة شقاوتهم المعهودة وصيحاتهم التقليدية ، وإما في الكنيسة حيث كان يتدرب على العزف على الأورج ، حتى أصبح عازفًا ماهرًا شهيرًا في فرنسا كلها .

* عندما بلغ طفلنا سن العاشرة ألحقه أبوه بالمعهد الوطني للمكفوفين في باريس وبدأ الطفل يتعلم ويُقبل على المعرفة ، بل وتفوق في الموسيقى والرياضة والعلوم والجغرافيا .. كانت الطريقة المستخدمة لتعليم المكفوفين هي صنع أشكال بارزة من الحروف عن طريق ضغط الحروف المصنوعة من المعدن إلى الورق المصقول ، ويُعطى الورق للأطفال بعد ذلك مقلوبًا فيتحسسون ظاهره بأناملهم محاولين التعرف على تلك الأشكال . غير أن هذه الطريقة كانت غير عملية ، إذ كان يبلغ طول الحرف الواحد حوالي سبع سنتيمترات ، ولذا كان أي كتاب — مهما كان صغره — يمثل عبءًا ضخمًا على المكتبة في حجمه ووزنه ، فأصغر رواية تتكون من سبع مجلدات ضخمة يزن الواحد منها أكثر من أربعة كيلو جرامات .

واصل بريل دراسته بنجاح ، ولكن طريقة الكتابة لم تعجبه ، وظل يفكر كيف يمكن ابتكار طريقة أسهل للكتابة للمكفوفين ؟ واعتبر هذا الموضوع قضيته الأولى ، التي كانت تشغله ليلاً ونهارًا . وأخذ يبتكر رموزًا جديدة

للكلمات والعبارات ، وقضى عطلة صيفية كاملة يقص قطعًا من الجلد السميك يصنع منها مثلثات ومربعات ودوائر ، بحثًا عن الرموز التي يريدها .

أنهى دراسته بالمعهد ، ولتفوقه عين مدرسًا فيه ، ولم ينس هدفه في ابتكار طريقة سهلة للكتابة لزملائه المكفوفين .. وبينما كان يجلس مع أصدقائه في إحدى المقاهي الباريسية ذات صباح ، سمع خبرًا مَلَكَ عليه حسه وتفكيره ، يقول الخبر إن ضابطًا في الجيش الفرنسي استطاع أن يبتكر طريقة جديدة للكتابة اعتمد فيها على النقط البارزة .. وفرح صاحبنا فرحة كبيرة ، وشعر أن هذا هو ما كان يبحث عنه .. ومن فرحته نسي نفسه ، وخرج عن وقاره المعتاد ، وصرخ قائلاً .. وجدتها .. وقرع المائدة التي أمامه في انفعال هستيري ، حتى أن صاحب المقهى جاء إليه ، وطلب منه الهدوء قائلاً : أرجوك ياسيدي أرجوك .. إنك تزعج الجالسين من حولك .. فأجاب بريل : اعذرني ياسيدي .. ولكني وصلت إلى شيء عظيم .. سأحطم به قبر العزلة الأبدية .. وسينتصر النور .

* في اليوم التالي هام لويس بريل على وجهه يفتش عن الضابط الذي قرأ عنه ، وأخذ يسأل عنه حتى اهتدى إليه ، وطلب منه معرفة طريقته الجديدة قائلاً :

سيدى أرجوك أن تشرح لي طريقة الكتابة في الظلام والتي تستخدمها مع جنودك .. وسيباركك الله وكل من فقد نعمة البصر في العالم .. وبدأ الضابط يشرح لصاحبنا كيف أنه بالاستعانة بنوع خاص من الورق يمكن رسم بعض العلامات المصطلح عليها بطريق الضغط ، وأن هذه الطريقة مستعملة في الجيش.. فنقطة بارزة واحدة ـــ مثلاً ـــ معناها تقدم .. ونقطتان بارزتان معناهما تراجع .. وسأل بريل الضابط عن عدد النقاط المستخدمة في هذه الطريقة .. فأجاب الضابط .. اثنتى عشرة نقطة ..

* لاحظ الضابط علامات الدهشة والفرحة والاستبشار ترتسم على وجه لويس بريل فسأله :

هل تعتقد ياسيد « بريل » أنه يمكن الوصول بهذه الطريقة إلى علامات تعبر

عن جميع حاجات الإنسان ، مما يجعلها طريقة كاملة للكتابة مثل الأبجدية ؟

* أجاب لويس بريل ؟

* نعم ياسيدي ، هذا ما سأقوم أنا به .. واسمح لي أولاً أن أكون أول مكفوف في العالم يعبر لك عن مدى شكرنا العميق .

* لم يهدأ بريل بعد ذلك ، بل ظل يجرب ويجرب استخدام النقط في إيجاد طريقة أو أبجدية للمكفوفين في العالم .. وكان يعمل لا من أجل تكوين أو اختراع أبجدية للمكفوفين وحسب ، بل أراد أن يصل إلى هذه الطريقة بأقل عدد من النقاط حتى تسهل العملية ، وبعد خمس سنوات من التجارب والعمل المرهق المتواصل ، استطاع أن يحقق ما يريد ، واعتمدت طريقته الجديدة على ست نقاط فقط ، عبرت عن حروف الهجاء والعلامات الرياضية والموسيقية ، وبعض الكلمات الكثيرة الاستعمال ، والأرقام الحسابية ، وحروف العطف ، كما وُجدت نقاط أخرى بارزة لكتابة حروف النوتة الموسيقية ، وذلك لهواة الموسيقى من المكفوفين ، وهم عدد كبير .

يتكون الحرف في طريقة « بريل » من عدة نقط بارزة ، ويستطيع الكفيف أن يقرأ ، وأن يتتبع بأنامله الخطوط التي تكونها هذه النقط ، وفي قراءته يجب أن يلاحظ عدد النقط وكيفية ترتيبها ، فبعض الحروف مثلاً يتكون من ثلاث نقط ولكن كل حرف يختلف عن الآخر في طريقة ترتيبها .

* مع بلوغ لويس بريل سن العشرين وذلك عام ١٨٢٩ ، كان قد توصل إلى هدفه في إقامة طريقة جديدة للكتابة للمكفوفين ، ولكنه لم يصل إليها بسهولة ، بل بعد تعب وإرهاق وكفاح ، حتى تسرب الداء إلى صدره فأصيب بمرض السل .. وفي عام ١٨٣٩ نشر رسالة يشرح فيها طريقته الجديدة للك للمكفوفين . لكنه اصطدم بمعارضة شديدة ، حتى في المدرسة التي كان يه فيها ، ورأى العاملون بأن مجال الطباعة للمكفوفين وقتذاك ، والتي كانت تعت على الطريقة القديمة ، يهدد رزقهم ومصدر كسبهم ، ومن هنا ثاروا عليه ووقفوا ضده .

* لم ييأس صاحبنا « بريل » ، بل أخذ يُدرِّس طريقته الجديدة لتلاميذه ، وحاول أن يتصل بالأكاديمية الفرنسية ، لكن طلبه رفض بحجة أن المكفوفين يتلقون فعلاً دروسهم بطريقة معترف بها . ظل يعمل واختار لأول كتاب يطبعه بطريقته الجديدة بعض المقطوعات المترجمة عن صاحب الفردوس المفقود ، الشاعر الإنجليزي الكفيف جون ملتون ، والعجيب ، والطريف أيضًا أن لويس بريل استخدم في طريقته الجديدة للكتابة مخرازًا طويلاً يشبه إلى حد كبير المخراز الذي سبب له العاهة وأفقده بصره . وبذلك صنع من الداء الدواء ، مما يدل على مدى تفاؤله وقدرته على تحويل الهزيمة إلى نصر .

* ظلت الدولة لا تعترف بجهد ابنها « بريل » وأهمية طريقته الجديدة للكتابة للمكفوفين ، حتى كان يوم عزفت فيه إحدى تلميذاته على البيانو على مسرح كبير من مسارح باريس ، وبعد أن انتهت من عزفها اهتزت أركان المكان برنين التصفيق وصيحات الإعجاب .. عندئذ قامت التلميذة المكفوفة البصر واقتربت من الجمهور قائلة :

* أنا لا أستحق شيئًا من تصفيقكم وهتافكم .. إن ذلك من حق رجل راقد هناك على فراش المرض .. في بيت فقير .. إنه لويس بريل ، الذي فتح لنا نافذة نطل منها على عالم زاخر بأنواع الثقافة والعلم .. ولم يكتف بهذا ، بل منحنا المعرفة الموسيقية حتى نعزف على الآلات الموسيقية المتباينة وليطرد سحر الموسيقى الوحشة والظلام عن نفوسنا .

* بدأت الصحافة الفرنسية بعد ذلك حملة ضخمة من أجل « بريل » ، انتهت برضوخ المسئولين للأمر الواقع ، والاعتراف بفضل الرجل الذي عاش حياته يفكر في رفاقه المكفوفين ، وكيف يحقق لهم نور الثقافة والمعرفة ؟ .. وعندما اعترفت الدولة الفرنسية رسميًا بنجاح طريقته الجديدة في الكتابة أسرع إليه أصدقاؤه يهنئونه ، فقال لهم والدموع تنساب من عينيه :

* « لم أبك في حياتي سوى ثلاث مرات .. المرة الأولى عندما فقدت البصر .. والمرة الثانية حين عرفت سر الكتابة وتوصلت إلى الأبجدية التي أريدها ..

والمرة الثالثة الآن فقد تأكدت أن حياتي لم تذهب هباء » .

* يُعد لويس بريل من العباقرة الذين رحلوا زهورًا ، إذ أن داء السل اللعين تمكن من جسده ، وقضي عليه سنة ١٨٥٢ و لم يكن قد تجاوز الثالثة والأربعين من عمره ، ثم إنه من العباقرة الذين هزموا اليأس ، إذ أن اختراعه لطريقة الكتابة البارزة للمكفوفين فتح لهم آفاق المعرفة والثقافة والنور ، وليس غريبًا أن يكون « لويس بريل » ابن فرنسا بلاد النور والمعرفة والثقافة هو الذي أشرق باختراعه بنور المعرفة لرفاقه .

* استفاد ملايين المكفوفين باختراع بريل ، وخرج منهم عباقرة خدموا الإنسانية في مجالات شتى ، وهزموا اليأس ، مثل الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي ، الذي تولى وزارة المعارف في مصر « التربية والتعليم الآن » ، ونادى بأن التعليم ضروري للإنسان مثل الهواء والماء * . وقد تعلم طه حسين عن طريقة « بريل » لكنه كان يفضل السماع عن القراءة بأنامله ، كذلك نذكر في هذا المجال معجزة القرن العشرين السيدة هيلين كيلر ** العمياء الصماء البكماء التي هزمت اليأس ، واستطاعت أن تتعلم وتحصل على درجة الدكتوراه في القانون ، والدكتوراه في الأدب ، وكتبتك هيلين كيلر عشرة كتب أهمها .. قصة حياتي .. بعيدًا عن الظلام .. فلنؤمن .. التفاؤل والعالم الذي أعيش فيه .. أغنية الجدار الحجري .. وفي هذا الكتاب تحدثت عن لويس بريل وأشادت بفضله على كل المكفوفين بعامة ، وعليها بخاصة ، إذ أن معلمتها آن سوليفان دفعتها ودربتها على إتقان القراءة بطريقة بريل ذات النقاط البارزة ، واستطاعت هيلين أن تقرأ عشرات الكتب منذ صغرها في مختلف الموضوعات بل وبسرعة عجيبة مما أفادها كثيرًا ، ولذلك فقد كتبت عن لويس بريل كنوع من الوفاء له ، وربطت بينه وبين الموسيقار الألماني الأشهر قاهر اليأس

---

* هناك فصل كامل عن د. طه حسين في الجزء الأول من كتاب « عباقرة هزموا اليأس » صفحة ١٠١ . الناشر دار الثقافة .

** نفس المرجع صفحة ١٣٧ .

« بيتهوفن » إذ أن الاثنين كانا موسيقيين .. ولم يمنع كف البصر بريل من ممارسة هوايته الموسيقية ، والعزف على الأرغن ، كذلك لم يمنع الصمم بيتهوفن من ممارسة هواية التأليف الموسيقى فأبرع فيها .

* في عام ١٩٢٩ ، أي بعد مائة عام من تحقيق لويس بريل لهدفه ، والوصول إلى طريقة جديدة سهلة للكتابة للمكفوفين احتفلت فرنسا بالذكرى ، وخلال الاحتفال أذيع الستار عن تمثال للويس بريل في قرية « كوفراي » التي ولد فيها وفقد فيها بصره أيضًا ، وما أن أزيح الستار حتى امتدت أيدى مئات المكفوفين الذين اجتمعوا حول قاعدة التمثال يتحسسون وجهه .. وجه الإنسان الذي أضاء لهم الطريق .

توماس أديسون

يهزم الظلام

(١٨٤٧ — ١٩٣١)



« العبقرية واحد في المائة وحي وإلهام ، وتسعة وتسعون في المائة عمل وعرق وجهاد ».

« أديسون »

إذا كنت تقرأ كتابًا ، أو تشاهد التليفزيون ، أو تجلس مع أصدقائك في مناسبة طيبة ، وفجأة انقطع التيار الكهربي فماذا تشعر ؟ لا شك أنك ستشعر بالضيق وتلوم المسئولين عن الكهرباء لإهمالهم الذي أدى إلى انقطاع التيار الكهربي وانتشار الظلام .. وإذا كان الحال هكذا في مصر ، فما بالك بالإنسان الذي يعيش في أوربا أو أمريكا أو روسيا وسط الثلوج ، ولا سبيل له إلا التدفئة الكهربية حتى لا يتجمد وتذهب حياته ..

هذه المواقف المختلفة تذكرنا بذاك العبقري الذي جاهد طوال حياته من أجل أن ينشر النور والكهرباء ويهديه للإنسان في كل مكان . إنه توماس ألفا أديسون Thomas A. Edison الذي ولد في ١١ فبراير ١٨٤٧ في مدينة ميلانو بولاية أوهايو الأمريكية لأبوين أنجبا سبعة أطفال كان توماس أصغرهم . كانت جذور العائلة من هولندا ، ثم هاجرت إلى كندا ثم أمريكا . لم يهتم صموئيل أديسون الوالد بطفله الصغير ومواهبه ، فكثيرًا ما رماه بالبلادة والغباء ، وأساء معاملته ، وكان يضربه ضربًا شديدًا . وفي ذات يوم ضربه بالسوط في إحدى الساحات العامة ، وعلى مرأى من الجماهير الذين توافدوا إلى تلك الساحة ليروا ذلك المشهد الغريب ، كان الأب ثوريًا سياسيًا ، هاجر إلى الولايات المتحدة واتسمت حياته بالقلق وعدم الاستقرار . فقد عمل في أكثر من مجال بين التجارة والزراعة ، ثم جرب حظه في الأعمال الحرة ، دون أن يحقق نجاحًا يذكر ، من هنا كانت معاملته لطفله سيئة ، إلا أن الله عوض طفلنا خيرًا عن أبيه في أمه ، التي كانت سيدة فاضلة ، تركت عملها بالتدريس لتتفرغ لعناية ابنها ، وكان هناك هاتف يقول لها أن مستقبل هذا الطفل سيكون عظيمًا ، وهكذا كان اهتمامها بطفلها توماس آخر العنقود . شجعته على التعرف على كل شيء وإشباع هوايته في الابتكار والتجربة . تحكي لنا ماريون أديسون شقيقة توماس عن ظاهرة طريفة في حياة شقيقها وهو ما زال في السادسة من عمره فتقول :

عندما بلغ توماس السادسة من عمره اكتشف الطريقة التي تجلس بها الأوزة على البيض ، وذات يوم لم نعثر على توماس وبحثنا عنه في كل مكان ، وأخيرًا

عثر عليه والده في جرن من الأجران ، وقد بنى لنفسه عشا تكور فيه فوق مجموعة من بيض الأوز والدجاج على أمل أن يفقس هذا البيض . ومع طرافة هذه الحادثة إلا أنها توضح لنا مدى حب الطفل أديسون منذ نعومة أظفاره للمعرفة والتجربة والاستطلاع . وعندما بلغ السابعة من عمره أصيب بمرض الحمى القرمزية ، كان من نتيجتها أنه أصيب بصمم جزئي ، وفي هذه الآونة ألحقه أبواه بإحدى المدارس المتواضعة في بلدة هورون في ميتشجان ، ولكن توماس لم يستمر في المدرسة أكثر من ثلاثة شهور فقط ، فقد شك أحد المدرسين في قواه العقلية واستعداده للدراسة ونقل هذا الشك إلى ناظر المدرسة ، الذي واجه والدة الطفل بهذه الحقيقة المرة ، لكنها لم تصدق وقالت له :

«إن ابني يحمل فوق كتفه رأسًا فيه من الذكاء أكثر مما في رأسك وفي رءوس كل زملائك المدرسين ».

تفرغت السيدة نانسي أديسون للعناية بطفلها توماس ، ووقفت بجانبه وساعدته على التعلم ، وشجعته على الاطلاع والقراءة . . وحولت بيتها إلى مدرسة خاصة له ، ووضعت كل علمها وخبرتها التي اكتسبها بفضل ممارستها لمهنة التدريس قبل الزواج في خدمة ابنها . ومن أجله أحبت كل أطفال الحي ، فكانت لهم جميعًا الأم والأخت والصديقة التي تلعب معهم ، وتقدم لهم الهدايا والحلوى ، ومن أجل طفلها توماس حبست نفسها في البيت لتقرأ معه الكتب القديمة والحديثة ، وتطوف به على الخرائط ، في رحلات حول العالم على الورق لتعلمه الجغرافيا ، واستطاعت هذه الأم الفاضلة أن تنمي مواهب وقدرات طفلها حتى أصبح أحد المخترعين القلائل في العالم وقدم للبشرية أكثر من ألف اختراع .. وقد اعترف العالم توماس أديسون عندما وصل إلى المجد والشهرة بدور أمه المهم في حياته فقال :

« لقد كان من الممكن أن يتغير مجرى حياتي لو لم تكن تلك المرأة أمي . فلولاها لما وُجدت ودونها ما تعلمت وبفضلها أصبحت ما أصبحت . كانت

هي صانعتي ومدرستي وملهمتي . ومن أجلها عملت ، ومن أجلها نجحت ، ومن أجلها عشت لأقدم لها وللإنسانية عصارة فكري وعملي وكفاحي ..».

عندما بلغ توماس أديسون الثالثة عشرة من عمره ، وبدأ يشعر بفراغ في حياته ، ولا سيما وأن دروس أمه لم تكن تستغرق وقتًا طويلاً ، ومن هنا أخذ يبحث عن عمل يشغل به وقت فراغه ، وأفضى لأمه بمشاعره ورغبته في العمل فساعدته كعادتها في إيجاد العمل المناسب لسنه الصغيرة فمنحته قطعة أرض صغيرة أمام الباب الخلفي للبيت في مدينة ميلانو ، ووقفت ترقب ما سيفعله الصبي الصغير بهذه الأرض ، وتعالوا نسمع ماذا يقول توماس أديسون :

« لم تطل حيرتي .. رحت أبحث عن بذور وشتل الخضر وأزرعها في الأرض ، وكنت أجمع المحصول فأعطي نصفه لأمي مقابل الأرض التي أهدتها لي ، أما النصف الباقي ، فكنت أبيعه للجيران .. وما هي إلا سنوات قليلة ، حتى عرفت المدينة بأمر المزارع الصغير ، فازداد الطلب على منتجات مزرعتي . وفكرت في أن أبحث عن أسواق جديدة ، ولم أجد غير مدينة ديترويت ، فقد كانت أقرب المدن لبلدتنا ، وكان هناك قطار يربط بين هذه المدينة وبلدتنا ويسير بانتظام بينهما . وعندما أعوزني المال الذي كان لا بد لي أن أدفعه ثمنًا لتذكرة القطار ، ذهبت إلى ناظر المحطة ، وعرضت عليه أن أقوم بتوزيع الصحف على المسافرين ونجحت الخطة ، ورحت أتنقل أنا وخضرواتي بين ميلانو وديترويت بالمجان ، وأوزع الصحف ، حتى بلغت أرباحي في أقل من سنة واحدة ، مبلغًا يزيد على الألف دولار .. »

لم ينس أديسون وهو في هذه السن المبكرة هوايته في الابتكار والاختراع ، وعلى الرغم من مكاسبه من بيع الخضر وتوزيع الصحف ، إلا أنه اختار عربة قطار خلفية قديمة وجعلها معملاً لتجاربه المختلفة . في ذات يوم بينا هو يجري أحد تجاربه العلمية إذ بالمواد التي يستخدمها تشتعل ، وتشتعل عربة القطار نتيجة ذلك ، وكان جزاؤه صفعة قوية من مفتش القطار ، أودت بالجزء الباقي من سمعه ، وسببت له صممًا كاملاً بقية حياته . وهناك قصة أخرى حول

إصابته بالصمم الكامل تذكرها مجلة العربي في عددها رقم ١٤٠٧ لسنة ١٩٨٦» تقول : « ذات يوم تأخر عن موعد القطار في الصباح ، وشهد القطار يتحرك من بعيد ، فجرى وراءه ليلحق به حتى بلغه ، ولكنه عجز عن الصعود إليه ، وحاول بعض عمال القطار مساعدته في الصعود فأمسكوا به من أذنيه ثم رفعوه بعنف حتى ينقذوه ، وبالفعل صعد إلى القطار ولكنه أحس بفرقعة داخل أذنه ، فقد أصيب بتمزق حاد في طبلة الأذن ، ومنذ ذلك الحين أصبح يعاني من الصمم الكامل ..» وكالعادة لم يستسلم توماس أديسون لعاهة الصمم ، ويركن إلى الراحة ، بل وجد نعمة في الصمم وقال ..

« لقد منحني الصمم فرصة للتفرغ للقراءة ، والابتعاد عن الضوضاء والثرثرة ، وأعطاني القدرة على التركيز ، وجنبني أن أسمع ما لا يفيد .. »

وهكذا الرجل الناجح في حياته يحول المشاكل إلى حلول ، والعاهات إلى وسائل تشجيع لنجاح أكثر وأكثر ، ويحول اليأس إلى أمل مشرق .

أخذ توماس أديسون يبحث عن عمل جديد ، بعد أن طُرد من العمل في القطار ، فوجد وظيفة في مكتب تلغراف ، وعمل بوظيفة بسيطة ، وأتيحت له الفرصة على استخدام جهاز إرسال البرقيات ، ودفعه عمله الجديد إلى زيادة الاهتمام بالكهرباء والاختراع وهي هوايته الحقيقية ، فأدخل على بعض الأجهزة تحسينات عديدة ، واستطاع وهو في سن الحادية والعشرين أن يخترع جهازًا كهربيًا لتسجيل الأصوات في الانتخابات العامة وإحصائها بدقة . ولكنه لم يتمكن من بيع اختراعه هذا . هداه تفكيره إلى صنع جهاز للتعريف بأسعار البورصة تلغرافيًا ، وباعه بما يساوي أربعين ألف دولار ، وهو مبلغ كبير في ذاك الوقت ، وأنفق هذا المبلغ في تأسيس معمل كبير يمارس فيه هوايته في الاختراع . ومن أهم اختراعاته إبان تلك الفترة ، ابتكاره لطريقة بث رسالتين على سلك واحد في آن واحد . أول الأمر في اتجاهين متضادين وسمى « دوبلكس » وبعد ذلك رسالتين على سلك واحد في آن واحد وسمى « ديبلكس ثنائي الاشارة diplex » ، وتستخدم الطريقتان حاليًا في أحدث

أجهزة الإرسال والاستقبال في العالم .

* قرر توماس أديسون عام ١٨٧٦ التفرغ للاختراع . فاهتم بعمله ، وجمع حوله مجموعة من العلماء لمساعدته ، وامتازت عقليته بأنها تجارية أيضًا ، فهو عندما يفكر في أي اختراع يضع نصب عينيه كيف يمكن لهذا الاختراع أن يفيد كل الناس ، وينتشر ويباع ، حتى يعود عليه ومجموعة العلماء بالكسب والربح . كذلك كان منظمًا في حياته ، مرتبًا في أفكاره . وحتى يحتفظ بسجل كامل لأفكاره المتدفقة بدأ في تدوين تلك الأفكار يوميا ، وكان يضيف لها أفكارًا أخرى جمعها من هنا وهناك . ومن أهم ملامح شخصيته الثقة بالنفس ، بل إن المتعاملين معه كانوا يتهمونه بالاسراف في الثقة بالنفس ، ولكنه كان جديرًا بثقته على هذا النحو في نفسه ، لأنه طوال تاريخه الحافل بالأفكار والابتكارات لم يعدم الوسائل المادية لتنفيذها عمليًا وتجاريًا ، كذلك كان يؤمن بموهبته واستعداده ، ومع ذلك كان يعمل ليلاً ونهارًا من أجل اختراعاته ، لأن الموهبة والعبقرية دون عمل لا تساوي شيئًا . وفي هذا قال كلمته المأثورة : « العبقرية واحد في المائة وحي وإلهام ، و٩٩ في المائة عمل وعرق وجهاد ..»

لم يكن أديسون يشعر باليأس ، ولو لحظة واحدة ، بل كان دائم التفاؤل حتى في أحرج المواقف ، وأحلك الظروف . فعندما أصيب بالصمم الكامل اعتبره نعمة لا نقمة ، نعمة لكي يتفرغ لهوايته واختراعاته وقراءاته ، ويبتعد عن ضجيج الناس وثرثرتهم . وعندما اشتعلت النيران في معامله وخسر كل ما يملك — وهذا ما سيأتي ذكره بعد — ابتسم وقال الآن نبدأ من جديد .. وهكذا كانت ملامح شخصيته تؤهله لأن يكون عبقريًا عظيمًا يذكره التاريخ بفخر ، كنموذج للأجيال الجديدة في كل زمان ومكان .

يقولون عن أبناء عصرنا الحاضر أنهم « ايكو echo » أي صدى الصوت ، وذلك لانتشار المسجلات بأنواعها المختلفة الكبيرة والصغيرة ، والتي تتحكم في الصوت وتجعله مناسبًا لما تريد . وقد أخذ الإنسان يحلم بتسجيل صوته على مر العصور ، ولم يستطع ذلك ، إلى أن جاء توماس أديسون وشغله ذلك

الاختراع ، وعن طريق المصادفة كان أحد الأطفال يلعب أمام شاطىء البحر وأحضر معه صدفة كبيرة وضعها على أذنه ، وتعجب من أن صوت البحر ما زال مخزونًا فيها . وسأل أديسون عن سبب ذلك ، وكانت بداية اختراع أديسون للفونوجراف ، بعد تجارب عديدة لتسجيل الصوت . وكلمة « إيكو » أي الصدي ، كانت اسم حورية جميلة في أساطير اليونان القدماء ، اشتهرت بحب الكلام والثرثرة ، فاستخدمها كبير الآلهة ، زيوس ، لتغطي بثرثرتها على علاقاته النسائية من وراء زوجته هيرا . وعندما عرفت هيرا انتقمت من إيكو بأن جعلتها كالببغاء ، تردد الكلمات دون أن تعرف معانيها . والعاملون في الإذاعات المختلفة أو في تسجيل الأصوات والأغنيات والتراتيل والتواشيح الدينية يعرفون هذه الكلمة ، ويستخدمونها دائمًا ، ولها فوائد كثيرة وبخاصة في الدراما والأفلام السينمائية .

أجرى أديسون عام ١٨٧٧ تجارب عديدة ، بعد دراسته لصدفة البحر ، واستطاع أن يختزن الصوت ويحقق ابتكارًا طالما داعب خيال الإنسان في كل مكان . كان الفونوجراف أول جهاز لتسجيل الصوت ، وبمجرد أن تدور الأسطوانة على الفونوجراف نسمع الصوت المسجل ، وربما لا يعرف أبناء إيكو ، وأقصد الجيل الحالي ، الفونوجراف لأنه لا يوجد إلا في البيوت القديمة أو المتاحف ، كاختراع أدى واجبه وعفا عليه الزمن ، خاصة بعد الاختراعات الكثيرة التي ظهرت في هذا المجال . لكن يظل الفونوجراف أول جهاز عرفه الإنسان لتسجيل الصوت . في عام ١٩٠٥ ظهرت أول أسطوانة تجارية ، ومع انتشار الكهرباء في جميع أنحاء العالم عام ١٩٢٥ تقريبًا ، انتشرت أيضًا الأسطوانة .

وكانت الأسطوانة في البداية أسطوانة حديدية ، وظلت تتطور حتى أصبحت أسطوانة بلاستيكية شفافة . وعلى الرغم من وجود المسجلات المختلفة ، وأشرطة الكاسيت ، إلا أن الاسطوانة ما زالت توزع بكميات كبيرة . وهناك جوائز باسمها . فهناك جائزة الأسطوانة البلاتين لكل فنان تبيع اسطواناته أكثر من مليون نسخة ، وقد بلغ عدد الأسطوانات التي بيعت في

العالم حتى عام ١٩٧٢ ، ٨٠١ مليون أسطوانة في فرنسا ، ٤٢٢ مليون أسطوانة في الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٦٥ مليونًا في اليابان ، ١٥٤ مليونًا في الاتحاد السوفيتي .

سجل توماس أديسون اختراعه للفونوغراف في ١١ مارس ١٨٧٧ في أكاديمية العلوم في فرنسا . وفي نفس الوقت اجتمع علماء فرنسا في القاعة الكبرى بالأكاديمية ليشاهدوا الاختراع الذي أتى من أمريكا .. ووقفوا مبهورين أمام ذلك الصندوق الخشبي المربع الذي تعلوه أسطوانة تدور وفوقها شيء كالقمع الكبير .. كانوا يسمعون بدهشة إلى الأصوات التي كان أديسون قد أعدها من قبل ، وبعد انتهاء الأسطوانة اقترب أحد العلماء الفرنسيين من الصندوق في احترام وقال بكل جدية :

« سيدى الفونوغراف هل تستطيع أن تتكلم بالفرنسية أيضًا ؟» وكان هذا السؤال أصدق تعبير عن دهشة العلماء ، وعدم قدرتهم على استيعاب حقيقة الاختراع ، فقد ظن بعضهم أن بداخل هذا الصندوق الكبير إنسانًا يتكلم من معدته ، أو سرًا آخر لم يُكتشف بعد .. ويقول أديسون نفسه في مذكراته :

« في عام ١٨٧٧ اخترعت الفونوغراف ، وكانت أول محاولة في العالم لتسجيل صوت الإنسان . ومع ذلك ظن كثيرون أن الأمر كان خدعة أو نوعًا من الدجل والشعوذة . وذات يوم جاء إلى معملي المطران جون فينست ، وطلب أن يرى الفونوغراف ، وبعد أن أحضرته ، طلب إلى أن أسجل له موعظة دينية ففعلت . وبعد أن انتهى التسجيل أعدته عليه فقال .. ليس في استطاعة إنسان أن يسجل أسماء من ذكرتهم في العظة بسرعة خاطفة .. لقد اقتنعت بصدق تسجيلك ياسيد أديسون ..».

ومع أن توماس أديسون الأمريكي الجنسية هو المعروف عالميًا ، وكما هو موجود في الكتب والموسوعات ، بأنه صاحب اختراع تسجيل الصوت ، إلا أن الفرنسيين ينازعونه في ذلك ، فهم يقولون إن عالمهم « شارل كرو » قد قدم قبل أديسون بعام بحثًا دقيقًا بعنوان « إمكانية تسجيل وإعادة سمع الظواهر

الصوتية التي تلتقطها الآذان ». ولكن أحدًا في الأوساط العلمية لم يهتم بهذا البحث ، مع أنه كان يحتوى أيضًا على رسوم علمية توضح إمكانية تنفيذ الجهاز المخترع ، وقد أطلق عليه صاحبه شارل كرو اسم « باليوفون ».

ويرجع العلماء والباحثون الفرنسيون سبب عدم الاهتمام باختراع عالمهم الفرنسي إلى شخصيته نفسها ، فقد كان شارل كرو يؤمن بنظرية العلم للعلم ، وأنه ليس عليه كعالم أن يروج لاختراعه أو يسعى إلى الإستخدام التجاري له .. لقد استطاع أن يثبت إمكانة تسجيل وإعادة سمع الظواهر الصوتية وعلى الآخرين أن يضعوا اكتشافه العلمي موضع التطبيق العملي والتجاري ، ولهذا لم يهتم أحد ببحثه ، مع أنه تقدم به قبل أديسون بعام كامل ، واصطدم بالروتين الوظيفي في الأكاديمية ، وأخيرًا قرر الانصراف عن متابعة اختراعه ، ولا سيما أنه كان رجلاً متعدد المواهب ، فقد كان شاعرًا وموسيقيًا ورسامًا قديرًا ، ودفعته هذه المواهب الكثيرة المتباينة إلى إهمال موهبة الاختراع ، وعدم الحماس للعلم .

أما توماس أديسون فكان على العكس من ذلك تمامًا ، كان يؤمن بأن العلم يجب أن يخدم المجتمع والحياة ، وأن الاكتشافات والاختراعات العلمية الجديرة بالاهتمام هي تلك التي تدر أكبر كمية من الدولارات على صاحبها ، لأن هذا هو معيار مدى أهميتها للناس .. لهذا لم يكتف أديسون بأن يضع النظرية العلمية ، بل تابع تنفيذها وأسرع بتسجيل صور الاكتشافات ، وعندما نجح بدأ يقوم بالدعاية حتى يدخل جهازه في المجال التجاري .

وما زالت المعركة مستمرة حتى الآن للإجابة على السؤال :

هل اختراع الفونوغراف أمريكي أم فرنسي ؟

وتشير المراجع والوثائق إلى أديسون كمخترع للفونوغراف ، فحتى لو كان شارل كرو الفرنسي قد قدم بحثه عن إمكانة تسجيل الصوت ، لكن النظرية وحدها لا تكفي ، وإنما كان توماس أديسون الأمريكي صاحب نظرية عملية إذ اكتشف النظرية ، وعمل جاهدًا على تطبيقها ، حتى عرفها الناس واكتشفوا

أهميتها واستخدموها فعلاً .

واصل أديسون تجاربه واختراعاته الكثيرة ، والتي وصلت إلى أكثر من ألف اختراع كان أهمها اختراع الكهرباء . حقيقة إنه لم يكن أول من اخترع نظام الإضاءة الكهربائية ، فقبله بعدة سنوات كانت أقواس النور الكهربائية تضيء شوارع باريس ، لكن أديسون تمكن من اختراع المصباح الكهربي ووضع نظامًا لتوزيع الكهرباء جعل من الممكن استخدام الكهرباء في المنازل . وقد اتهمه الناس بالجنون في أول الأمر ، عندما عرفوا طموحاته والهدف الذي يسعى إليه ، ثم أشفقوا عليه واحترموه بعد أن عمل وعرق وكافح في سبيل تحقيق اختراعاته . وفي بداية تجاربه لاختراع المصباح الكهربي ، استخدم الكربون في صناعة الفتائل المضيئة داخل المصباح ، لكن الكربون سريع الاحتراق ، فأخذ يبحث عن مادة لصناعة الأسلاك الرقيقة التي توجد داخل المصباح وتتوهج عند مرور التيار الكهربي بها دون أن تشتعل . أخذ يجرب آلاف المواد ، وأنفق في سبيل تحقيق ذلك مبالغ ضخمة من المال فضلاً عن الجهد المضنى العظيم . وأخيرًا اهتدى إلى مادة تقاوم الحرارة لمدة ٤٨ ساعة فأخذ يطورها حتى اهتدى إلى أسلاك البلاتين التي لا تشتعل وإنما تتوهج عند مرور التيار الكهربي فيها فتضيء المكان ، وهذه هي نظرية المصابيح الكهربية الحديثة ، وحتى ينشر اختراعه بين الناس باع أديسون مصباحه الكهربي في البداية بخسارة آملاً أن يؤدي ذلك إلى رواجه ، وفعلاً أقبل الناس عليه بعد ذلك إقبالاً شديدًا ، مما دفعه إلى مضاعفة إنتاجه وخفض ثمنه ـــ هذه نظرية تجارية ناجحة وهي أن يهتم التاجر بالربح القليل مع البيع الكثير للسلعة ، وهي تحقق أرباحًا وفيرة في النهاية ـــ واستطاع أديسون بذلك أن ينشر اختراعه المهم (المصباح الكهربي) ، ويحصل أيضًا على أرباح وفيرة تعوضه عما أنفقه في البداية على تنفيذ الاختراع .

اتجه أديسون بعد هذا النجاح إلى ابتكار نظام لتوزيع التيار الكهربي من محطة رئيسية ، ثم ابتكر طريقة لتوزيع التيار إلى عدة بيوت منفصلة ، ثم ابتكر الأجهزة التي تقيس شدة التيار الكهربي وقدرته ، كما اخترع أنواع عديدة من

المولدات الكهربية المتعددة الأغراض ، بعدها اخترع المفاتيح الكهربائية التي تقطع التيار من تلقاء نفسها . وهكذا أدت الاختراعات الكهربية والأسس التي وضعها أديسون لتوزيع الكهرباء على البيوت والمصانع إلى أن أصبحت الكهرباء حدثًا عظيمًا في تاريخ الإنسان ، بل هي التي نقلت الإنسان إلى حضارة القرن العشرين .

ساهم توماس أديسون بعد ذلك في تطوير كاميرات السينما ، وفي اختراع التليفون ، وبخاصة أنه هو الذي اكتشف أهمية الكربون في نقل الأصوات ، كذلك ساهم في اختراع أجهزة التلغراف والآلة الكاتبة ، والبطاريات الجافة والميكروفونات ، وابتكر طريقة صناعة الأسمنت بتكاليف زهيدة ، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، انصرف إلى خدمة الجيش وساهم في صناعة المواد المتفجرة وأدخل تحسينات على الغواصات وقذائف الطوربيد ، مما كان له أكبر الأثر في كسب الحرب .

ويرجع المؤلف الأمريكي مايكل هارت صاحب كتاب « المائة » عظمة توماس أديسون في اكتشافاته المختلفة إلى أنه أنشأ لنفسه معملاً خاصًا في سن مبكرة ، واختياره عددًا من المساعدين . وكان معمل أديسون نموذجًا للمعامل التي أقامتها المؤسسات الكبرى بعد ذلك ، هذا بجانب شخصيته الطموحة وقراءاته الكثيرة ومميزاته التي تحدثنا عنها قبل ذلك .

وثمة حادثة في حياة أديسون تعبر عن مدى قوة شخصيته ، وقدرته على الصبر ، وتفاؤله الدائم ، فقد احترقت معامله في مدينة نيوجرسي في إحدى ليالي شهر ديسمبر ١٩١٤ ، وفقد أديسون كل معداته وآلاته ، وصور اختراعاته مرة واحدة ، وقدرت خسارته بأكثر من مليونين من الدولارات ، وهو مبلغ كبير ، وبخاصة إبان ذلك الوقت ، ويروي لنا شارلز ، بن أديسون حكاية تلك الليلة العصيبة الرهيبة فيقول : « وقفت أمام ألسنة النار والدخان المتصاعدة أبحث عن أبي وسط الناس الذين ازدحموا حول مكان الحريق.. وأخيرًا وجدته يقف وحده يتأمل النيران في هدوء وهي تلتهم ثمرة كده

وكفاحه.. وعندها فقط أدركت أثر الكارثة عندما رأيت شعر رأسه الأبيض الذي لعبت به رياح الشتاء الباردة .. لقد تقدم به العمر وهدّته الشيخوخة .. يالها من كارثة .. ولحتني والدي فإذا به يصيح فيّ قائلاً : أين أمك أدعها بسرعة فهي لن ترى منظرًا كهذا طول حياتها .. وفي صباح اليوم التالي جئنا — أبي وأمي وأنا — ورحنا نسير وسط حطام آمال وآحلام والدي ، الذي قد جاوز وقتها عامه السابع والستين .. وفجأة توقفنا عن السير وقال والدي : هذه كارثة حقًا ولكنها لا تخلو من نفع .. فقد التهم الحريق جهدي ومالي ، ولكنه خلصني أيضًا من أخطائي .. شكرًا لله فنحن نستطيع الآن أن نبدأ من جديد بلا أخطاء ..».

عاش توماس أديسون ٨٤ سنة ، كان خلالها محبوبًا من الناس والأصدقاء ، حتى الأعداء كانوا يكنون له كل احترام ، وتزوج مرتين فقد رحلت زوجته الأولى في سن مبكرة ، وأنجب ستة أبناء ، ثلاثة من كل زوجة ، وأصبح أحد أبنائه « تشارلز » حاكمًا لولاية نيوجرسي .

كان توماس أديسون من أعظم العبقريات التي عرفها الإنسان في سعة الخيال ، والابداع في التفكير ، والقدرة على العمل الدءوب . وفي ٢١ من شهر أكتوبر عام ١٩٣١ رحل أديسون عن عالمنا ، بعد أن أهدي إليه النور الذي نقل الإنسان إلى عصر الكهرباء والحضارة ، حضارة القرن العشرين ، وتكريمًا لشخصه وما قدمه للعالم أطفئت الأنوار ليلة تشييع جنازته لمدة دقيقة في الساعة التاسعة والدقيقة التاسعة والخمسين .

ومع أن أديسون توفي منذ ستين عامًا تقريبًا ، إلا أن العلماء ما زالوا يبحثون في أوراقه ومذكراته عن الحقائق العلمية الكثيرة ، التي توصل إليها ، فقد ترك مجموعة كبيرة من الرسوم البيانية والاسكتشات ، المذكرات التي تحمل معلومات غاية في الأهمية ، كما ترك رسائل تشكل في مجموعها كمًا هائلاً يقدر بثلاثة ملايين ونصف مليون صفحة ، تشكل الحقوق المسجلة للمخترع حوالي

ألف ومائة [1] اختراع الجزء الأعظم في هذه التركة ، ويشتمل الجزء الآخر على سجل المخترعات وتصنيفها ، وتهتم دور النشر العالمية بنشر هذا التراث العلمي الكبير ، ومن المنتظر أن يكون المجلد الأول واحدًا من سلسلة قد يصل عددها إلى خمسة عشر أو عشرين ، ويتناول الأعوام الستة والعشرين الأولى من حياة أديسون ، وينتظر أن تكون هذه السلسلة إضافة قيمة لكل ما كتب عن تاريخ التكنولوجيا .

ويُعد توماس أديسون من العباقرة العظام الذين هزموا اليأس ، اليأس المادي ، واليأس النفسي ، فقد فشل في الدراسة بالمدرسة ولكنه عوضها بالدراسة على يد والدته الفاضلة ، وأصيب بصمم تام ، ولكنه لم يهتم ، بل قال إن الصمم نعمة وليس نقمة ، فهو يريحه من ثرثرة الناس وكلامهم الفارغ ، ويشجعه على التركيز في عمله ، وبعد أن قدم اختراعاته ووصل إلى سن متأخرة اشتعلت النيران في معامله وحولتها إلى رماد وخسر حوالي مليونين من الدولارات في ليلة واحدة ، غير الاسكتشات والمعلومات والرسومات ، ومع ذلك لم ييأس الرجل وبدأ يعمل من جديد ، وهذه أهم ملامح أديسون : إنه لم يعرف اليأس طوال حياته ، بل هزمه كلما حاول الاقتراب منه .

---

(١) تختلف المراجع في عدد اختراعات أديسون فتذكر أنها ألف ، وألف وسبعة وتسعين ، وألفين ، وألف ومائة وهكذا . ولكن المؤكد أنها أكثر من ألف اختراع .



ألفريد نوبــل

والجائــزة

(١٨٣٣ ـــ ١٨٩٦)



لا أذكر أنني أستحق أية شهرة .. كما أني لا أستسيغ طنطنتها .

« نوبــل »

ألفريد نوبل والجائزة

هل يستطيع الإنسان أن يعترض على وجوده في العالم منذ ولادته ويلغيه ؟

بالطبع لا يستطيع إنسان أن يلغي وجوده ، وإنما البعض يعترض أحيانًا عندما يصبح إنسانًا كاملاً ويفكر في معنى وجوده ، ومعنى الحياة ، ويصل في النهاية إلى لا شيء ! ويشعر بأن هذا الوجود لا فائدة فيه ، ولا معنى له وأنه لو لم يكن لكان أفضل .

وهناك أفراد يعترضون على وجودهم في نفس الوقت الذي يشعر فيه العالم بأنهم خدموه ، وقدموا له منافع كثيرة جليلة يذكرها لهم دائمًا بالعرفان والتقدير .

من هؤلاء الذين خدموا العالم وقدموا للبشرية خدمات كثيرة ، الأديب والعالم الكيمائي الفريد بونارد نوبل ، صاحب الجائزة العالمية المعروفة باسمه ، التي يأمل العلماء والفلاسفة والأدباء والساسة المشهورون في العالم الحصول عليها .

وعلى الرغم من هذه الشهرة العريضة لصاحبنا ألفريد نوبل ، والثروة الطائلة الكبيرة التي هبطت عليه من اختراعاته وأعماله .. إلا أنه عاش منعزلاً ، حزينًا كئيبًا ، غريبًا عن وطنه ، يشعر دائمًا بأن حياته غير هامة وغير ضرورية وأنه كان من الأفضل ألا يوجد في هذا العالم !!

ولد ألفريد نوبل في ستوكهولم عام ١٨٣٣ في إبراشية نوبلوف من إقليم سكين الموجود في أقصى طرف السويد الجنوبي ، ولذلك لقب بنوبل نسبة إلى بلدته « نوبلوف » وكان منذ طفولته ضعيف البنية سقيمًا ، والغريب أنه قدم إلى العالم في نفس السنة التي أفلس فيها أبوه عمانويل ، رغم نشاطه الملحوظ ، ولكن هذا الإفلاس لم يثنه عن الكفاح والصبر لتحقيق طموحه ، ومن حسن حظ ألفريد نوبل أنه ورث عن أبيه الذكاء وروح الكد والمثابرة والكفاح والطموح .

لم يذهب نوبل في طفولته إلى المدرسة ليتعلم بل اقتصر تعليمه على الدروس الخصوصية التي كان يتلقاها في بيته حتى بلغ السادسة عشرة ، وكانت الحياة بعد ذلك هي مدرسته الحقيقية ، فتعلم باجتهاده وذكائه وفطنته كل العلوم التي جعلته أهلاً لأن يفكر ويخترع ويقف على قدميه وسط العلماء والباحثين والمفكرين .. وقضى حياته متنقلاً بين روسيا وأمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وساعدته رحلاته هذه على إتقان اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية بجانب لغته السويدية الأصلية ، وأصبح نوبل عضوًا في الجمعية الملكية بلندن ، وجمعية المهندسين المدنيين بباريس وأكاديمة العلوم الملكية بستوكهولم ، ودكتورًا شرفيًا في الفلسفة بجامعة أوبالا ، وتخصص في دراسة المفرقعات وخاصة النيتروجلسرين واكتشف عدم خطورتها وسهولة تداولها بأمان بعد إدماجها في مادة ماصة وخاملة مثل الكيسلجور ، وسجل هذا الخليط عام ١٨٦٧ باسم ديناميت .

وفي عام ١٨٧٥ سجل نوبل اختراعًا جديدًا باسم الجيلاتين الناسف وتوصل إلى هذا الاختراع بخلط مادة النيتروجلسرين مع مداة القطن البارودي المشبع بحمض النيتريك ، وهي مادة شديدة الانفجار ، وأصبح الجيلاتين الناسف أكثر تفجرًا وفتكًا من الديناميت ، ثم اخترع بعد ذلك « البالستيت » وهو أول مسحوق نيتروجلسريني غير مدخن ، وأصبح فيما بعد الأساس في صناعة الكورديت وهو البارود الحبلي .

ولم تكن هذه كل اختراعات نوبل بل إنه اخترع في عام ١٨٦٤ ، أي قبل اختراعه للديناميت ، مشعل نوبل وكان أعظم اكتشاف في مجال المفرقعات من حيث الفكرة النظرية والتطبيق .

وقد ربح نوبل ثروة طائلة عريضة في شبابه وفي كهولته من مخترعاته وأعماله ، وانتشرت ثروته بين حواضر العالم وعواصم الدول ، وكانت معظم اختراعاته في مجال المفرقعات تستخدم في الشئون المدنية مثل حفر المناجم ومد الطرقات وشق الأنفاق ، وقد اضطر إلى الابتعاد عن الأبحاث العلمية

والاختراعات كي يتفرغ لإدارة أعماله التجارية التي انبثقت من اختراعاته والتي أخذت في الازدهار حتى غطت قارات العالم .

* والعجيب أنه مع هذا الثراء العريض ، والذكاء الموفور ، والشهرة التي عمت العالم ، لم يكن الفريد نوبل رجلاً سعيدًا بل كان منطبعًا بجو الحزن والاكتئاب منذ طفولته ، محبًا للعزلة ، يعاني وحدة قاتلة ، وكلما ازدادت ثروته وشهرته ازداد اكتئابًا ، وضاعف من هذا الحزن والاكتئاب إصابته بمرض الذبحة الصدرية ، وضعف معدته الذي منعه من تناول الغذاء الملائم والكامل لصعوبة هضمه .

ومن أسباب القلق الذي عاش فيه نوبل هو كسبه للثروة من صناعة المتفجرات التي كانت تهدد السلام العالمي ، فشعر بالذنب وأنه السبب في تلك الاختراعات التي تهدد الإنسانية بالقتل والتشريد والفناء ، على الرغم من أن هذه الاختراعات ذاتها أدت إلى ثورة هائلة في حفر المناجم وشق الأنفاق وهي أعمال كلها لخدمة الإنسان .

* ولم تكن هذه الأسباب وحسب مصدر قلق واكتئاب وحزن صاحبنا الفريد نوبل بل إن علاقته بحواء كانت سببًا آخر لهذا الشعور ، فلم يتزوج ولم تتح له الفرصة في الزواج من حواء التي أعجب بها وأحبها وكانت نبيلة تدعى « بوتاكنسكي » عملت عنده مديرة لبيته وكاتبة لرسائله ، وكان يكبرها عمرًا بعشر سنوات ، وكانت هي في الثالثة والثلاثين ربيعًا من عمرها ، وشعر نوبل بالعطف عليها في البداية ثم اهتم بها ، والاهتمام بحواء هو أول درجات الحب ، وازداد الحب والإعجاب ، واقتنع بأنها تصلح لأن تكون شريكة حياته ، ولم تساعده شجاعته على الإفصاح والتعبير عن حبه ورغبته ؟ فسألها إن كانت تحب أحدًا وترتبط به أم هي ملك لنفسها طليقة من كل قيد ؟

وكانت بوتاكنسكي مرتبطة بعلاقة حب بفتى من نبلاء بلادها ـــ النمسا ـــ وكان الفتى يبادلها الحب إلا أن أهله رفضوا أن يقترن بها لفقرها وتفاوت السن بينهما ، ولم تجد بدًا إلا أن تترك بلادها ووطنها لتنسى حبها الكبير لفتاها ،

ومع ذلك فهي تحبه وهو يحاول أن يقنع أهله بالموافقة على زواجهما .

وهكذا لم يستطع ألفريد نوبل أن يتزوج بمحبوبته ، ويقال إنه أحب فتاة أخرى في سن متأخرة بعد ذلك كانت تصغره بثلاث وعشرين سنة ، ولكنها لم ترتفع إلى مستواه الاجتماعي والعقلي فلم يتزوجها هي الأخرى ، أما حواء الوحيدة التي كان يحبها إلى درجة العبادة والإعزاز فهي .. والدته .

واجتمعت الأسباب الصحية والنفسية والعاطفية لتجعل من ألفريد نوبل المخترع الهادىء الوديع ، أغنى شريدًا في أوربا ، فهو يشعر بفراغ حياته وتفاهتها ، يردد دائمًا .. « لا أذكر أنني أستحق أية شهرة كما أني لا أستسيغ طنطنتها »

وكتب ترجمة ذاتية لنفسه على شكل بطاقة قال فيها :

ألفريد نوبل : نصف إنسان ضئيل ، كان ينبغي أن يتاح له طبيب طيب يقضي عليه يوم قدم صارخًا إلى دنياه .

مزاياه : ينظف أظافره ولا يحب أن يثقل على أحد .

نقائصه : شريد بدون أسرة ، كئيب ، سيء الهضم .

رغبته الوحيدة : ألا يدفن وهو على قيد الحياة .

لا شيء هام في حياته .

وألفريد نوبل رجل متواضع حقًا ، إنسان بمعنى الكلمة ، فلم يكن نصف إنسان كما كان يقول ، بل إنسانًا كاملاً اهتم بالإنسانية ، واعتبرها قضيته الأولى ، وكان يفكر كثيرًا في مستقبلها ، واقترح عقد معاهدة تلتزم فيها الحكومات بأن تدافع بالإجماع عن أية دولة يقع عليها أي هجوم ، ومثل هذه المعاهدة ستؤدي تدريجيًا إلى نزع السلاح جزئيًا ، وقد ترجم هذا الاقتراح عملياً بعد ذلك ، وتجلى في تكوين عصبة الأمم ثم هيئة الأمم المتحدة ، وكان من أسباب حبه للسلام تأثره بآراء شيلي وصداقته لبرتافون سوتنر وهي من الرواد الأوائل

في حركات السلام ، مما جعلها تفوز عام ١٩٠٥ بجائزة نوبل للسلام .

وفي السابع والعشرين من شهر نوفمبر ١٨٩٥ وقع نوبل على وصيته بمدينة باريس ، وعبرت الوصية عن آرائه بخصوص ما كسب من عمله ومخترعاته بعرق جبينه ، حيث قرر فيها أن يحول الجزء الأكبر من ثروته التي بلغت أكثر من ٣١٫٥ مليون دولار إلى رأس مال يستثمر بحيث يوزع دخله سنويًا في شكل جوائز لمن قدموا للجنس البشري أجل فائدة في مجالات الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا أو الطب والأدب والصداقة بين الأمم ، وأنهى نوبل وثيقته التي حوت ثلاثمائة كلمة تقريبًا بالتأكيد على وجوب مكافأة أعظم المستحقين سواء أكان اسكندنافيًا أو لم يكن .

وبعد عام تقريبًا من توقيع نوبل على وصيته توفي في العاشر من شهر ديسمبر عام ١٨٩٦ في إيطاليا ، وأعلنت الوصية بعد أيام من موته ولكنها لم تنفذ إلا بعد انقضاء أربع سنوات تمت خلالهما الإجراءات القانونية والعملية اللازمة .

وبدأت اللجنة توزع جوائزها الأدبية منذ السنة الأولى في القرن العشرين ، وكان أول الحاصلين عليها الشاعر المفكر الفيلسوف الفرنسي ، رينيه سولي وبرودوم ، عضو الأكاديمية الفرنسية .

كما كان أديبنا نجيب محفوظ أول أديب روائي عربي يحصل عليها .

وما أحوجنا الآن لأكثر من نوبل يرى ما يجرى من أحداث عالمية دامية ، يرى الحرب والخراب والنار والدمار ، يرى التفرقة العنصرية التي لا أساس لها ، يرى اضطهاد الإنسان للإنسان ، يرى التعذيب البشري والإنسانية المعذبة ، يرى الذين يتخمون بطونهم بأشهى المأكولات والذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم فيناموا جوعى بغير طعام .

وما أحوج عالمنا المعاصر إلى شخصيات محبة للسلام ، مثل نوبل ، تحكمه

بالعدل ، وتسعى لخدمة الإنسان في كل مكان ، وتمنع الحروب ، وتصلح بين البشر ، وتصون حدود الدول الصغيرة من الهجمات الشرسة للدول الكبيرة ، وكأننا سمك في بحر يأكل كبيره صغيره .

ما أحوجنا إلى نوبل جديد يهزم اليأس ويضع اختراعات العلم الحديث في مصلحة الإنسان ويجدد الأمل في القضاء على الحروب ونشر السلام .











هذا الكتاب

الكتاب الذي بين يديك ـــ عزيزى القاريء ـــ هو الجزء الثاني من الدراسة التي بدأها الكاتب عن شخصيات بارزة قهرت اليأس وانتصرت عليه ، بعض هذه الشخصيات ما يزال على قيد الحياة ، والبعض الآخر مضى منذ زمن غير قليل ، وهم :

جورباتشوف ـــ نلسون مانديلا ـــ صبحي الجيار ـــ هوميروس ـــ رينوار ـــ ماري كوري ـــ لويس بريل ـــ أديسون ـــ ألفريد نوبل .

الكاتب في سطور :

★ عضو نقابة الصحفيين .
★ عضو اتحاد الكتاب والأدباء .
★ مذيع ومعد ومقدم برامج بالاذاعة .
★ له مؤلفات في أدب التراجم والنقد الاجتماعي وأدب الرحلات .

دار الثقافة

١٠١٠٢٧١٨